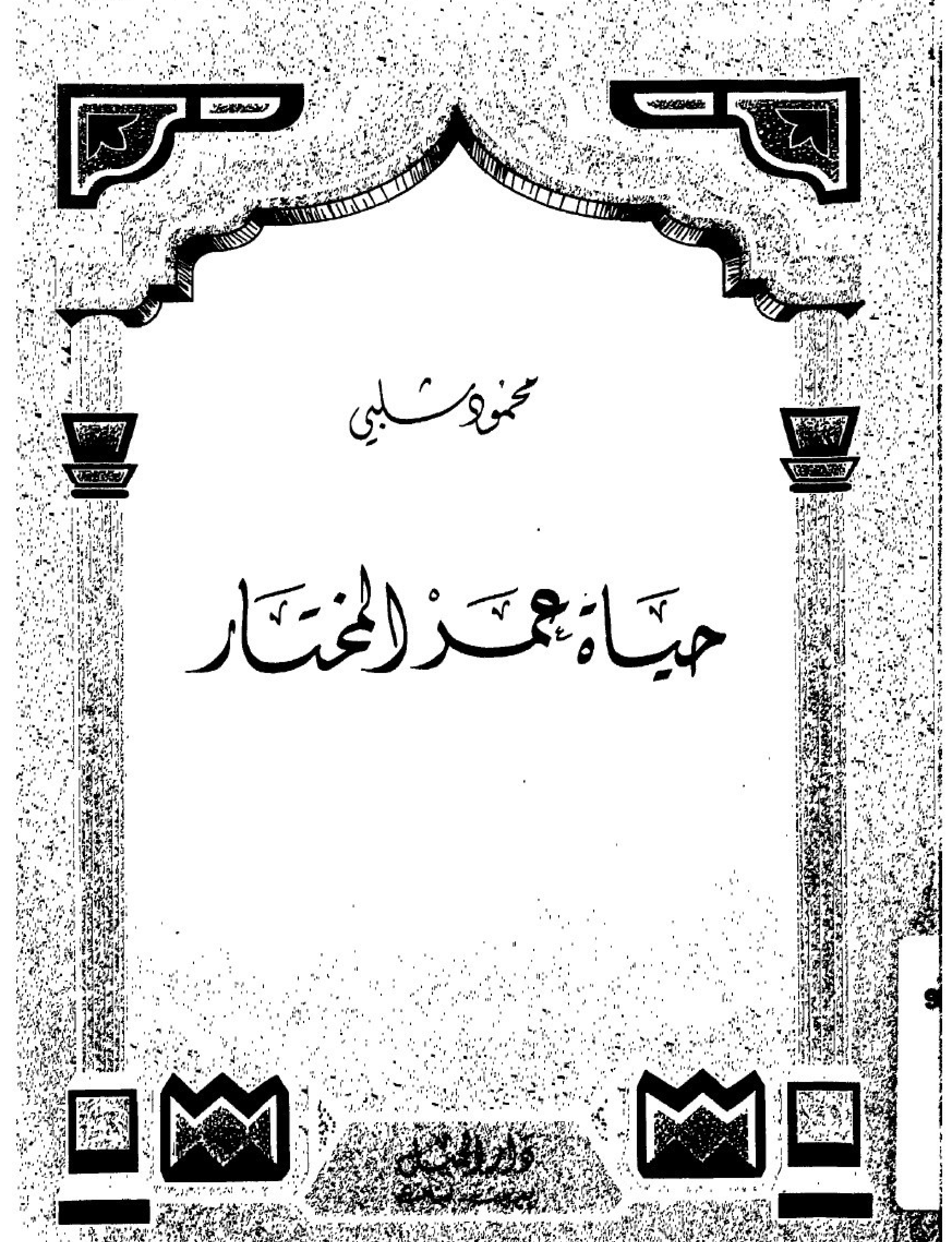

محمود شلبي
حياة عمر المختار
دار الجيل

حيـــاة

عمر المختـــار

محمود شلبي

حياة عمر المختار

دار الجيل
بيروت - لبنان

الطبعة السادسة
١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

الإهـــداء

اللهم ... منك ... وإليـك

محمود شلبي

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي هذه الطبعة

رب قائل يقول : لماذا أدخلت « عمر المختـــار » في سلسلة أبطال الاسلام ... وهو ليس صحـــابياً ولا تابعياً ولا من تابع التابعين ؟!

اقول : بل هو أحق بالبطولة من التـابعين !!

لان الثبات على الحق في زمان ابتعد الناس فيه عن الحق .. أدل على البطولة .. من الثبات على الحق .. في زمان يجد المجاهد فيه أعواناً على الحق ...

فانبعاث عمر المختار .. ليقاتل امبراطورية .. وحده .. ومعه حفنة من الرجال ... دليل بطولة .. وآية فخار ...

ولم يكن هذا ... في القرون الأولى من الاسلام ... ولكن في هذا العصر !!

وها هي الطبعة الرابعة ... تسعى بين يديك ...

وتقول لك : سلامٌ عليك !!

١٤٠٢ هـ
١٩٨٢ م

محمود شلبي

مقدمة

سيرة ذلك الرجل سيرة عاطرة .

روحهـــا إيمان عميق بالله ، وحب شديد لقيوم السماوات والأرض ، ورغبة أكيدة في الشهادة في سبيل الله .

ومظهرها قتال مرير للمستعمر ، وصبر لا ينفد في مجـــالدة دول الاستعمار حتى آخر قطرة من الدماء .

جاهد الامبراطورية الايطالية وحده ومعه قليل من الرجال ، فما وهن وما استكان وما ضعف ، ولكن قاتل وقاتل .

وأسندت اليه القيادة العامة للمجاهدين ، في ظروف قـاتمة ، فحملهـــا وهو يبتسم ، وذلك شأن الأبطال الذين وهبهم الله روحاً من عنده .

ولو أن جبلاً شاهقاً ألقيت عليه ذلك العبء لتفتت وتصدع ، ولكن الرجل كان ذا قلب أقوى من الحديد وأمتن من الجبال .

سيرة خلدت عند الله لأنها تؤمن بالله ، وخلدت عند الناس لأنها تؤمن بحق الناس أن يعيشوا أحراراً .

محمود شلبي

في خريف

الامبراطورية العثمانية

نحن في منتصف القرن التاسع عشر ، والعالم الإسلامي كلـه تقريباً ، يتحد سياسياً تحت علم واحد ، هو خلافـة آل عثمان ، ويتبـع الباب العالي واتجـاهه .

وكانت الإمبراطورية العثمانية في ذلك الوقت جداراً يريد أن ينقض.، ولا يمنعه من الانقضاض إلا بقايا من عوامل البقاء التي كانت تقاوم ذلك الفناء .

وقد شاع وذاع في ذلك الحين تسمية تركيا بالرجـل المريض وكانت التسمية صادقة إلى حد بعيد .

فقـــد كانت الدولة فعلاً أشبه بشيخ خرف ، اجتمعت عليه أمراض الشيخوخة ، ولم يبق بينه وبين الفنـاء إلا أن يلفظ

أنفاسه .

الا أنها كانت آخر عزة إسلامية جامعية ..

ونهاية إمبراطورية قامت والتامت ، على أساس فكرة الخلافة الإسلامية .

من أجل ذلك كان عزيزاً على المسلمين الصادقين ان تنهار دولة الخلافة ..

وكانوا يعتقدون ، أن بقاءها ، أمر ضروري لبقاء عزة الإسلام .. لأنها السياج الذي يدفع عن المسلمين ، اعتداء المعتدين .

ألا ان سنة الله التي لا تتبدل ولا تتحول ..

لم تكن لتتغير من أجل أماني بعض الناس ، أو أحلام بعض المسلمين .

وسنة الله أن كل دولة يشيع فيها الظلم والفساد ، لا بد من إهلاكها واذهابها .

أما الظلم في تلك الامبراطورية .. فقد كان شائعاً ذائعاً ..

وما زالت الأذهان ، تذكر افعــال الاتراك في رعـايا الامـبراطورية .

وأمــا الفساد .. فقد كان منتشراً في بنيان الدولة وقيادتهــا .

وكانت تركيا تتعرض لهزات وزارية أشبه ما تكون بمهازل سقوط الوزارات وتــأليفها ، في أيامنا هذه .. في الدول الفاسدة .

خلافات في كل شيء ..

وما اختلف قوم إلا هلكوا .

خلاف في الدين .

فريق يرى الجمود على الماضي والتبلد على المظهريات من عمائم ضخمة ولحى فخمة وتمائم طويلة حالة ..

وفريق يرى ، نبــذ هذه المظهريات ، والعودة إلى جوهر الدين ، من صفاء الكتــاب ، ونقاء السنة ، وكان الصراع على أشده بينهما

وخلاف في السياسة العليا ..

السلطان له حاشية .. والصدر الأعظم (رئيس الوزراء) له حاشية .

وإهمال تام في الاعداد والتسلح .

وبذلك اجتمعت على الدولة عوامل الفناء ، ولم ينفعها انتسابها إلى الاسلام ..

ولا التفافها حول الخلافة .

ذلك ان الاسلام ليس عصبية جاهلية ..

وإنما هو ، شريعة تامة كاملة .. أنزلها الله لينزل للناس على حكمها .

وجعل أساسها كلمة واحدة هي « العدل » .

« إن الله يأمركم أن تؤدوا الامانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل » .

(النساء ٥٨) .

فالعدل هو روح الشريعة الاسلامية .. والعدل معناه أن يكون الناس سواسية كاسنان المشط .. في الحقوق والواجبات .

فاذا انحرف الحكم واستبدل الحكام الحق بالباطل ، والظلم بالعدل ، حقت عليهم الكلمة ، ونزلت بهم اللعنة ، واهلكهم الله إهلاكاً .

« وتلك القرى اهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً » .

(الكهف ٥٩)

وعلى ذلك قالوا ان الله يهلك الامة بظلمها ولا يهلكها بكفرها ..

لان الظلم اعتداء على العباد ..

والكفر إنكار لحق الله ..

والله قد يؤجل عقوبة الكفر ، ولكنه لا يؤجل عقوبة الظلم إلا إلى حين .

وهكذا كانت تلك الامبراطورية ، أشبه شيء بالشجرة الجافة ، تعصف بها رياح الاعداء من كل جانب ، كل يتربص بها الدوائر .

وكان مما اغرى الدول الاجنبية بدولة الخلافة ، فوق ما هي عليه من ضعف وانحلال ..

أنها كانت تضم خير بقاع العالم موقعاً وثروة مما يسيل له لعاب الذئاب المتربصة ..

وناهيك بدولة كانت تضم الشرق الاوسط كله ، والبلقان ، وشمال افريقيا ، والسودان ، وجزيرة العرب .. وغير ذلك من الاقطـار .

في تلك الاحوال المكفهرة ، ومن تلك الشجرة الجـافة .. نبتت فروع ثلاثة خضراء تحاول اصلاح الحـال ونفخ الروح في الجسم الميت .

الصيحة الاولى : صيحة الوهابيين ، وكان مذهبهـا أن يعود المسلمون الى الكتاب والسنة فعلاً لا قولاً .

والصيحـة الثانية : صيحـة جمـال الدين الافغاني ، وكان مذهبه تقوية الخلافة ، وكان من رأيه أن الخـلافة القوية في مقدورها ان ترد عدوان المعتدين ، وتحمي أقطار المسلمـين في المشارق والمغارب .

والصيحة الثـالثـة : هي دعوة السنوسية في شمال افريقيـا وغربها ، وكان مذهبها العودة الى الكتاب ، والسنة ، والإرشاد ، والتوجيه .

الا ان هـذه الصيحـات كلها ، وان استطـاعت أن تحقق كثيراً من اهـدافهـا .. الا أنها لم تستطع أن تنفخ الحيـاة في الجسم الميت .

فلفظت الامبراطورية العثمانية آخر أنفـاسهـا ، عند انتهـاء الحرب العالمية الاولى .

وخرجت تركيا منهزمة بانهزام حليفتها المـانيا .

الدعوة السنوسية

تنتشر

أسس هذه الدعوة محمد بن علي السنوسي ، العالم العامل المجاهد في سبيل إحياء العمل بالكتاب والسنة .

ولد عام ١٧٨٧ بالجزائر ، وأخذ العلم عن أفاضل العلماء ، حتى عين مدرساً بالجامع الكبير بمدينة فاس .

وشاع أمر الرجل وذاع بفاس ..

وحاول نشر دعوته بالحسنى والموعظة الحسنة ، فابى أصحاب الحكم إلا نفوراً ، وحاربوه حرباً شديدة ، مخافة أن تنقلب دعوته الدينية إلى أخرى سياسية قد تذهب بالسلطنة القائمة وقتئذ .

فشددوا عليه الرقابة ، مما دفعه إلى الارتحال عن الجزائر

الدعوة السنوسية

تنتشر

أسس هذه الدعوة محمد بن علي السنوسي ، العالم العامل المجاهد في سبيل إحياء العمل بالكتاب والسنة .

ولد عام ١٧٨٧ بالجزائر ، وأخذ العلم عن أفاضل العلماء ، حتى عين مدرساً بالجامع الكبير بمدينة فاس .

وشاع أمر الرجل وذاع بفـاس ..

وحاول نشر دعوته بالحسنى والموعظة الحسنة ، فابى أصحاب الحكم إلا نفوراً ، وحاربوه حرباً شديدة ، مخافة أن تنقلب دعوتـه الدينية إلى أخرى سياسية قد تذهب بالسلطنة القائمة وقتئذ .

فشددوا عليه الرقابة ، ممـــا دفعه إلى الارتحال عن الجزائر

نحو الشرق .

فزار طرابلس وبنغازي ، ثم دخل مصر وواليها وقتذاك محمد علي باشا الكبير .

وحضر الرجل مع علماء الأزهر واجتمع بهم وأخذ عنهم ، وكان الرجل قد سبقته شهرته ، فـاخذ مقام الاستاذ واستمع اليه الناس ..

وحببهم فيه شدة تمسكه باستقلاله في الرأي ، واحـــترامه لنفسه ، وعدم مبالاته برأي الحكام فيه .

فجر ذلك عليه المتاعب التي لاقاها بفاس .

فايقن الرجل أن المرض هنا هو المرض هنــاك ، وارتحل عن مصر مهمومـاً إلى الحجاز ..

وعندمـا استكمل الرجل علمه وشخصيته بمكة ، جعل يلقن من يتوسم فيهم الخير الطريقة المحمدية التي اشتهرت فيا بعـــد بالطريقة السنوسية .

وفي عام ١٨٣٧ أنشا السيد أول زواياه بمكة .. ثم لحقه مـا لحقه من قبل بفاس ومصر . وهو التفاف الناس من حوله وخوف الحكام من ذلـك .

فغادر مكة إلى برقة في عام ١٨٤٠ ، وكان انتقاله اليها بـدء انتشار الدعوة السنوسية في انحاء ليبيا .

وفي الزاوية البيضاء ببرقة أسس السيد ثاني الزوايا فكانت المكان الذي انبثق منه نور الدعوة إلى الانحاء .

وتابع السيد عمله حتى بلغ عدد هذه الزوايا عند نهاية حياتـه في جميع انحاء ليبيا الاثنين والعشرين ، منها ثمـانية عشر زاوية في برقة وحدها .

وكان انشاء هذه الزوايا المتعددة ..

ثم انتشار تعـاليم السيد من جهة اخرى .. مما أثار مخاوف السلطات العثمانية من سلطان السيد .. الذي انتشر من شاطىء البحر الأبيض المتوسط ، من الاسكنـدرية .. إلى بلاد الزنوج بالجنوب .

وأثار كذلك عداء علماء الدين الجامدين الذين كانوا يرفضون كل جـديد .

ومـا كان الجديد ، في الدعوة السنوسية ، سوى تمسك صاحبهـا ، بالكتاب والسنة ، وقوله بأن الاجتهاد مفتوح ، مما زاد نقمة هؤلاء الشيوخ عليه ، خصوصاً شيوخ القسطنطينيـة ،

ومكة ، ومصر .

★ ★ ★

أمام ذلك ، رأى السيد ، أن من الحكمة أن يتخذ مقراً جديداً لدعوته غير الزواية البيضاء ، بعد أن تحولت بعد فترة وجيزة من إنشائها إلى مدينة كبيرة تهوى اليها أفئدة الناس ، ويقصدها الزوار من كل جانب .

فاختار لهذا الغرض واحة الجغبوب ، وكان اختياراً موفقاً ..

ذلك أن جغبوب كانت في مكان تكثر به القبائل العربية المستقلة ، والتي قبلت الدعوة السنوسية ..

وأصبح لذلك من المستطاع أن يعتمد السيد على أهلها في نشر دعوة الاسلام في مجاهل الصحراء ، وفي الجهات المجاورة التي ما زال اهلوها حتى ذلك الحين على وثنيتهم القديمة ..

كما أن الجغبوب كانت بعيدة عن الساحل ، مما يجعلها بعيدة عن سلطان الوالي التركي ببنغازي .

وكانت جغبوب قبل انتقال السيد اليها ..

واحد ملحة يأوي اليها الدعار واللصوص ولا تجسر القوافل أن تمر بها من جراء العبث في أنحائها ..

فلما اختارها مقراً له وبنى بها زاويته الكبرى صارت مهد أمان ومركز عبادة ومشرق أنوار ومعلم هداية .

فغرس بها الأشجار ونسق الجنان واستنبط العيون وتوسع في البناء ، وأسس مدرسة لتخريج مريدي الطريقة أجلس للتدريس فيها جلة العلماء .

واستطاع السيد ، أن يجعل منها مركزاً لنشر الاسلام بين الزنوج الوثنيين في واداي وفي الأقاليم المجاورة لها ..

فقد تغلغلت السنوسية في عهده في هذه الجهات ، وانتشرت انتشاراً بعيداً .

ومما يذكر ، ان بعض البدو أغاروا على إحدى القوافل التي كانت تحمل عبيداً ، من اهل واداي ، لبيعهم في أسواق الرقيق ..

وكان سطوهم عليها وهي لا تزال في طريقها إلى مصر على الحدود البرقاوية المصرية .

فاشترى السيد منهم جميع الرقيق ، واحضرهم إلى الجغبوب ،

حيث اشرف بنفسه على تربيتهم وتعليمهم في الزاويـــة .. ثم حررهم وارسلهم إلى بلادهم (واداي) ، كي ينشروا الاسلام بين الزنوج .

ومن ذلك الحـــين ، صار اهل (واداي) يحضرون بمحض إرادتهم إلى الجغبوب ، يتلقون العلم في زاويتها .

وأقام السيد بالجغبوب سنتين ، وتوفى في اول السنة الثالثـة عام ١٨٥٩ .

وكانت السنوسية عند وفاته قد قطعت شوطـــاً كبيراً في سبيل الدعوة والإرشاد ، وتشييد دعائم تلك الإمارة التي سعت اليهم وما سعوا اليهـا .

الامارة تسعى

الى السنوسية

كانت الدعامة [١] الأولى التي أدت إلى انتشار دعوة السنوسية هي البساطة ..

تطلب إلى الناس إقامة فرائض الدين ، وتأمرهم بما أمرهم الله وتنهاهم عما نهاهم عنه ..

في غير ما شيء يغاير المنطق ..

او تنفر منه الفطرة السليمة .

---

(١) كان المرجع الأهم في هذه الفصول من الناحية التاريخية كتاب « السنوسية دين ودولة » للدكتور محمد فؤاد شكري .. وهناك فقرات كثيرة نقلناها بأكملها حيث لم نجد أشمل منها .

وكانت الدعامة الثانية هي الزوايا .

والزوايا هي المكان الذي يجتمع فيه الأتباع للعبادة ونشر الدعوة والارشاد بين أهل البلاد المجاورة ..

او بين القبائل القاطنة بجهتها ..

او رجال القوافل الذين يمرون بهذه الزوايا في غدوهم ورواحهم ..

وكسب السنوسيون ، بفضل هذا التنظيم الجديد .. سلطاناً واسعاً ، كان له أثر واضح ، في قيام الإمارة السنوسية ذاتها ..

ولم تكن زواياهم ، جوامع عبادة ، وإنما كانت مراكز نشاط وحيوية وإصلاح .. يشع منها النور علماً وعملاً ، في كل ما جاورها .

حتى كان يندر أن تمر بزاوية من غير أن تجد حولها بستاناً او بساتين فيها من كل الثمرات .

ووضع السيد نظاماً للزوايا وترتيبها ..

حتى غدت كل واحدة منها أشبه بحكومة ذات سلطان عظيم

على جميع الأهلين المقيمين في جهتها .

فالزاوية هي مركز العلم والتعليم بالناحية او القبيلة ..

وشيوخ الزاوية يعلمون الأهلين شئون دينهم ودنياهم ..

ويفصلون فيما يقوم من منازعات وخصومات ..

ويردون المنهوبات إلى أصحابها ، وينشرون الأمن والطمانينة اينما كانوا .

ثم ربط ، بين جميع هذه الزوايا المتفرقة ، والقاصية برباط متين من المخابرات ، والمخاطبات .. وفقَ نظام دقيق تلتقي أسبابه ، عند الزاوية الكبرى المركزية ، وهي زاوية الجغبوب .

وقد خدمت هذه الزوايا الاسلام خدمة جليلة ..

كما أنها ساهمت مساهمة جدية وفعالة في نشر الفضائل ومحاربة الرذائل .

فهي إلى جانب تعريف القبائل بشئون دينهم القويم ..

تنشر الرسالة المحمدية السامية ..

وتحمل هذه الرسالة ، على وجه الخصوص إلى الشعوب الوثنية

(الزنوج) ..

في قلب افريقيا الغربية ، والسودان ، والصحراء الكبرى .

حتى اهتدت هذه القبائل المتوحشة البدوية إلى الاسلام طائعة مختارة .

فصلح حال هذه الشعوب ، وتهذبت طبـــاعهم ، وذهبت الحدة من نفوسهم ، وامتنع اكثرهم عن طلب العيش بالاعتداء على الغير .

ومن الكلام على الزوايا يسهل الانتقال إلى الكلام عن الأصول السياسية التي استندت اليها الدعوة السنوسية .

وقد سبق ان خرجت الامارة السنوسية إلى عالم الوجود منذ أن لجأ العثمانيون إلى المؤسس يستخدمون نفوذه في إصلاح ذات البين بين العرب والترك .

فاعترفت الدولة العثمانية عن طريق واليها في طرابلس بزعامة السيد وإمارته :

★

وهكذا بدأت السنوسية طريقها ..

ثم اشتدت فقويت دعوتها إلى إحياء العالم الاسلامي ..

ثم عظم ارشادها .. فحملت رسالة القرآن والسنة ، الى سائر الأقطار ..

لذلك كله ، لم تلبث ان احتلت السنوسية مكان الامارة والصدارة ..

ولم يكن ثم مناص من حدوث هذا التطور .

وفي الحقيقة كانت هذه الزوايا عبارة عن مراكز حكومية بكل ما يحمله هذا الوصف من معنى .

ويتمتع شيوخ السنوسية بنفوذ عظيم في الأقاليم التي توجد بها زواياهم ..

وليس هناك ادل على مقدار ما بلغه سلطان السنوسية من الطريقة التي توصل بها هؤلاء الشيوخ او الزعماء الى تأمين طرق القوافل في قلب الصحراء الكبرى في افريقيا .

فلم تكن قافلة تامن على متاجرها ، وأموالها ، ورجالها ، الا اذا أخذت ، قبل قيامها وتوغلها في الصحراء (محررات)

من شيوخ الزوايا السنوسية .. تصبح بمثابـــة (جوازات مرور) .

وكانت هذه القوة كلها مجتمعة في يد شيخ الزوايا الأعلى وامامها ومؤسس الطريقة .

وكان شخصه العظيم ، موضع الاحترام ، وكلمته النافذة .

وبمجرد ان اتخذ الجغبوب مقراً ومركزاً للسنوسية ..

عظم شأن هذه الزاوية تدريجياً ، حتى غدت قصبة الإمارة السنوسية ..

ترد اليها التقارير والرسائل ، وتصدر منها الأوامر والنواهي الى مختلف بقاع الأرض .

ويشرف صاحبها ومؤسسها ..

ويبسط سلطانه على عدد عظيم من المسلمين .

ثم عظمت قوة السيد تدريجيا ، حتى صار في امكانه ، في النهاية ، لو شاء .. ان يجمع الأربعين ، والخمسين الف مقاتل .

وله القدرة ، عند الطلب ، على أن يسوق ، لأية بقعة شاء

جميع القبائل وجميع السودانيين من اتباعه .

وكان سبب ذلك كله ..

ان الرجل كان يربي اتباعه ، على ضرورة تعلم الرماية وفنون الحرب والاستعداد للجهاد في أية لحظة .

العصر الذهبي

للدعوة السنوسية

ورث السيد محمد المهدي السنوسي الخلافة عن السيد محمد بن علي ، من عام ١٨٥٩ إلى عام ١٩٠٢ ، أي حوالي الأربعين عاماً وزيادة .

فكانت هذه الفترة الطويلة ، فترة استقرار وانتشار للدعوة ، حتى يصح بحق ، تسميتها بالعصر الذهبي للدعوة السنوسية .

وكان الرجل بعيد النظر سديد الرأي ، شديد العزم على إتمام البناء الذي شيده والده العظيم ..

فأكثر من انشاء الزوايا ..

وإرسال الدعاة والمبشرين إلى أواسط افريقيا مثل بلاد النيجر والكنغو والكامرون وجهات بحيرة تشاد .

ثم عمل على ذيوع الدعوة عن طريق واداي ، وبرنو ، وكانم ، والداهومي وغيرها ..

حتى بسطت السنوسية سلطانها الروحي على هذه الأقاليم ، مما دعم اركان الامارة الجديدة في قلب افريقيا .

وكانت الدعوة تستند إلى دعامتين قويتين في انتشارها ..

إحداهما روحية ، قائمة على الوعظ والارشاد والعمل بهدي الكتاب والسنة ..

والأخرى مادية ، أساسها تعلم الرماية ، وإتقان أساليب القتال ..

وكان ذيوع الدعوة إلى الاسلام ، ونجاحها في اواسط افريقية ..

ثم توطيد سلطان السنوسيين في قلب الصحراء الكبرى ، عقبة كاداء في طريق الرسالات المسيحية التبشيرية .. التي وجدت في السنوسيين ، خصوماً عنيدين ، عطلوا عليها أعمالها لدرجة بعيدة ..

إن لم يكونوا قد افسدوا هذه الأعمال في بعض الجهـــات وأبطلوها ..

زد على ذلك ، أن نجاح الدعوة السنوسية ، ودعم أركان الامارة الجديدة سرعان مـا صار يقض مضاجع دول الاستعمار الغربية ، وخصوصاً منذ أن قويت منافسة هذه الدول فيما بينهـا من أجل اقتسام القارة الافريقية .

فبدأت حملة الدعاية العريضة الكاذبة ضد السنوسية ورموهـا بكل سوء .

ثم تقدموا بشكاياتهم ضد السنوسيين .. الى السلطـــان العثماني عبد الحميد ..

فإنه لما كان السيد المهدي ، لا يابه لمحاولة هـــذه الدول ، من أجل التقرب اليه ..

وفشلت وسائلهم في اجتذابه اليهم وأعرض عنهم .. عظمت مخاوفهم من تشكيلاته وحركاته ، وانكبوا يسعون لدى الاستانـة ويشددون الضغط على السلطان عبد الحميـــد كي يتوسط بوصفه الخليفة الأكبر في استدعاء السيد المهدي في افريقية للاقـــامة في ارض الحجاز ، او في دار الخلافة .. وعدم مغادرتها والعودة

إلى وطنـه .

ولكن السلطان لم يجب الدول إلى هذه الرغبة في النهـاية .

بيد ان اهم الحوادث التي وقعت في هـــذه الفترة وأظهرت ما كان يتحلى به السيد المهدي ، من صفات الزعامة والامـارة السامية ..

وكشفت عن حقيقة النفوذ الروحي والزمني الذي يتمتع بـه السيد طيلة حياته .

كان قيام محمد أحمد بالثورة ، في السودان المصري وادعاؤه أنه (المهدي المنتظر) .

وقد وضح السيد المهدي خطة (الحياد) الدقيق التي اتبعهـا حيال محمد أحـمد بقوله :

« إنه إنما يعني بالدعوة إلى إصلاح الدين الحنيف سلمـــاً لا حرباً . بينما تنفر الملة التي يراد إحياؤها نفوراً عظيمـــاً ، بل وتشتد ثورتها ضد الدماء التي يهدرهـــا محمد أحمد والجرائم التي يرتكبها أتباعه في السودان .. ولذلك فانه لا يريد أن يتدخل في شيء مما يحدث ، بل من واجب محمد أحمد وخليفتـــه هذا أن ينظرا وحدهما في الوسائل التي تكفل لشخصيهما النجاة أو الهلاك

المحقق » .

فجاء هذا القول إعلاناً صريحاً عن عزم السيد على التمسك بخطته أو سياسة عدم التدخل في شئون السودان .

ثم قرر السيد الارتحال من الجغبوب إلى الكفرة عندما رأى ان الجغبوب قد أصبحت موضع أنظار الجميع ..

وأن السلامة صارت تقضي بالانتقال منها والتوغل جنوباً في الصحراء إلى مكان يكون اكثر أمناً من سابقه وبعيداً عن نفوذ الدول وتقلبات السلطان العثماني نفسه .

وفي الحقيقة ، كان ينتظر السيد المهدي ، عند انتقاله إلى الكفرة برنامج واسع ..

هذا عدا تأسيس الزوايا الكثيرة ، والعمل على نشر نور الهداية والعرفان .. والتبشير بالاسلام بين شعوب التبو والتوارق وغيرهم ..

ومع أن هذا النشاط العظيم كان يقض مضاجع الدول الغربية التي اخذت على عاتقها حماية الرسالات التبشيرية التي ذهبت إلى مجاهل القارة الافريقية ، تروج لدعوتها .

ثم طفقت هذه الدول تبذل كل جهد من أجل الحد من نشاط

السيد عن طريق الباب العـــالي تارة ، وعن طريق الاتصال المباشر بالسيد نفسه ، ومحاولة استمالته حتى تقلـل من نشاطه ، تارة اخرى ..

ووجدت عندما باءت مساعيه لدى السيد المهدي بالفشـل ، ولم تلمس منه ذلك التراخي الذي كانت تنشده ..

أن تهول من أمر الدعوة السنوسية الكبرى ، فـأخرجتها عن الحدود التي وضعها السيد المؤسس والتزمهـــا خليفته الأول .. كدعوة ، للإصلاح الديني والاجتماعي .. في العـــالم الاسلامي قاطبة ..

وصارت تعزو اليها الرغبة في تأسيس ملك قوي الدعـــائم ، ينازع دولة الخلافة القائمة ذاتها ، السيطرة والسلطان على هذا العالم الاسلامي الواسع ..

تبغى ولا شك من وراء هذا الزعم والادعاء القاء بذور الفتنة والاضطراب في العالم الاسلامي ، وإثارة عـداء دولة الخلافة ضد السنوسيين حتى تقوض اركان إمارتهم..

وعندما اصبح الخطر الفرنسي مـاثلاً بسبب زحفهم المتواصل على الامارات الاسلامية في افريقية الغربية ..

قرر السيد المهدي الانتقال من الكفرة إلى محل قريب من مكان هذه العمليات الخطيرة ..

فغادر التاج إلى زاوية قرو في (برقو) في عام ١٨٩٩ م ، وخرج معه ابن اخيه السيد أحمد الشريف وغيره .

وبالفعل تقدم الفرنسيون صوب (كانم) واستعد السنوسيون لمقابلتهم ، فوضعوا حامية كبيرة في (بير العلالي) ..

وعهد للسيد المهدي إلى ابن أخيه السيد أحمد الشريف بادارة الحرب والجهاد ضد الفرنسيين .

واشترك في القتال قواد من السنوسيين مبرزون ، ثم قائد آخر أحرز فيما بعد صيتاً وشهرة عظيمة .. وهو السيد عمر المختار .

ولكن لم يكن مقدراً للسيد محمد المهدي نفسه ان يشهد حوادث هذا الجهاد الأخيرة ..

فقد توفي فجأة وهو في قرو في أول يونيو ١٩٠٢ ونقل جثمانه الطاهر إلى الكفرة .

قتال الفرنسيين

لما كان السيد محمد إدريس اكبر أنجال الأمير الراحل ، صغير السن ، ولا يكاد يبلغ الثلاثة عشر عاماً ..

فقد أوصى السيد المهدي بزعامة السنوسية ، لابن اخيه السيد أحمد الشريف ، على أن يكون السيد أحمد ، في الوقت نفسه وصياً على السيد محمد إدريس نجل السيد المهدي الأكبر ، والخليفة الشرعي .

وكان الجهاد الحقيقي بين السنوسيين والفرنسيين في جهات التبستي ..

فقامت مناوشات عديدة ..

وأظهر السنوسيون في هذا النضال جلداً وعزيمة قوية .

واستطاعوا ان يكبدوا الفرنسيين خسائر فادحة في الأرواح والأموال .

إلا ان الفرنسيين بفضل اسلحتهم الحديثة وقواتهم المتدفقة استطاعوا ان يحرزوا انتصارات هامة .

بيد ان هذا الجهاد الطويل كانت قد خفت حدته من مدة لجملة اسباب .

منهـــا ان العثمانيين كانوا يعتبرون انفسهم في حالة سلم ، مع فرنسا ..

فتعذر على المجاهدين ، بسبب ذلك ، الحصول على الأسلحة والذخائر والمؤن اللازمـــة للمضي في قتال الفرنسيين ، في هذه الأصقاع النائية .

اضف الى هذا ..

• ان الفرنسيين انفسهم ، بعد ان تم لهم إخضاع واداي وبرقو وقرو .. اضطروا من جانبهم .. الى الوقوف عند حدود برقة الجنوبية ، بسبب الارتباطات الدولية التي قيدت حركتهم ، من هذه الناحية .

واما السنوسيون ..

فقد ارغموا ، هم ايضاً ، على ترك النضال ، ضد فرنسا ، في النهاية عندما ؟!!!

الحرب

الايطالية ــ الليبية

فاجأ الإيطاليون الدولة العثمانية بقطع علاقتهم معها واعلان الحرب عليها في اواخر سبتمبر ١٩١١ ..

ثم اطلق اسطولهم قذائفه على موانىء طرابلس وبرقة ، ووقع على السنوسيين .. عبء الدفاع عن البلاد التي نشأت فيها دعوتهم ، وكانت مقر امارتهم ..

وهو الدفاع الذي اتخذوا له عدتهم من مدة طويلة .

فتقاطرت جموعهم ، واحتشدت في ميادين القتال الشمالية ، خصوصاً في برقة .

وبدأ من ثم ذلك النضال الصارم ، الذي استمر من غير هوادة مدة الثلاثين عاماً التالية .

وتحمل السنوسيون في اثنائه ، اعظم تضحية قدمتها أمة في العصور الحديثة ، من اجل المحافظة على بقائها .

ويعرف التاريخ هذا الاعتداء الايطالي ، باسم الحرب الطرابلسية (الليبية) الايطالية ..

ومنذ مجيء الطليان الى برقة ، وطرابلس ، حتى وقت خروجهم منها مهزومين مقهورين ..

خط السنوسيون ، قصة كفاحهم بدمائهم ..

واقاموا الدليل بعد الآخر ، على ان الشعوب التي تعتز بعقائدها وتقاليدها وقوميتها ، لا يمكن فناؤها مهما تضافرت ضدها القوى المادية ، والتي تعتمد على فرض سيطرتها وسلطانها على السيف والمدفع ، ووسائل ازهاق الأرواح التي حذق الغرب صنعها .

وكان السبب الرئيسي ، الذي دفع ايطاليا الى العدوان على طرابلس الغرب هو الشعور بالنقص .

فاتجهت انظار قادتها الى ضرورة التوسع الخارجي ، حتى تستطيع ايطاليا ان تزعم بحق انها احدى الدول العظمى .

ففي عام ١٨٨٥ كانت العلاقات بين انجلترا وايطاليا ، قد تحسنت لدرجة مكنت ايطاليا من احتلال مصوع على شاطيء البحر

الأحمر الافريقي ..

وفي الأعوام التالية ، شغلت ايطاليا بتأسيس امبراطوريتها في ارتريا (١٨٩٠) .

ثم أخذت تعمل من أجل الاستحواذ على الحبشة ..

ولكن الاحباش استطاعوا في النهاية تبديد هذه الاحلام الجميلة عندما انزلوا بالايطاليين هزيمة قاصمة في موقعة (عدوة) المشهورة في سنة ١٨٩٦ .

وأمام هذا الفشل الذريع في الحبشة ، وبمجرد ان انهارت آمال الايطاليين في إنشاء إمبراطوريتهم في افريقية الشرقية .. اتجهت انظارهم من جديد إلى افريقية الشمالية .

وكان الانذار الايطالي ، كما هو منتظر ، شديد اللهجة ، اتهمت فيه إيطاليا الحكومة العثمانية بأنها ، كانت حتى الآن تبدي عداء دائماً نحو الحركة الايطالية الشرعية في طرابلس وبنغازي حتى اصبحت الحالة في طرابلس الغرب عظيمة الخطورة بسبب التحريض العام ضد الرعايا الطليان .

لكل ذلك .. ولما باتت لا تجدي نفعاً اية مفاوضات للوصول إلى تسوية ودية .. أو إعطاء إيطاليا أية امتيازات من أجل إنهاء

هذه الأزمة المختلقة ..

فقد رأت الحكومة الايطالية نفسها ـ كما قالت ـ مرغمة على المحافظة على شرفها ومصالحها ..

ولذلك ، قررت ان تحتل ، طرابلس وبنغازي ، احتلالاً عسكرياً ..

وهي « تنتظر ان تصدر ، الحكومة السلطانية اوامرها حتى لا تصادف ايطاليا في الاحتلال ، معارضة من رجال الحكومة العثمانية .. وبعد ذلك ، تتفق الحكومتان ، على تقرير الحالة اللازمة » .

ولما كانت الوزارة التركية غير مستعدة للحرب ، فقد أرسل الباب العالي جوابه على هذا الانذار .. وكان جواباً يحمل طابع الذل والمسكنة ..

وأصدرت الحكومة الايطالية ، بلاغاً آخر في رومة في الوقت نفسه ، يعلن قيام الحرب بينها وبين الدولة العثمانية .

وفي يوم ٣ اكتوبر ١٩١١ ، اطلق الاسطول الايطالي قذائفه على ميناء طرابلس ..

وبذلك بدأت الحرب الليبية ـ الايطالية .

وعندئذ افاقت الدولة العثمانية من غفوتها ، وظهر جلياً ، انه عليها وحدها فقط ، تقع مسئولية رد اعتداء الطليان والدفاع عن املاكها .

وفي هذه الأثناء ، كان هياج الخواطر ، في العالم الاسلامي ، قد بلغ ذروتـه .

وكان أهم الأسباب التي دعت آلاف المسلمين ، إلى التطوع ، في صفوف المجاهدين ، قوة الرابطة ، التي دفعت بهـذه الشعوب الاسلامية إلى التكاتف والتساند في وجه العدو المعتدي .

وعلى الخصوص ، عندما وقع هذا الاعتداء على قطر من اقطار دولة الخلافة الاسلامية ..

وكان المسلمون متحفزين وقتئذ للانتصار دائماً لدولة الخلافة ، ويقبلون على الجهاد من اجل المحافظة على كيانها ..

لأنهم توقعوا من سقوطها وانحلالها ، ضياع الكلمـة وضعف القوة ..

وتتلخص اهم حوادث الحرب ، في ميدان طرابلس ، في ان الاسطول الايطالي ، ظهر امـــام مدينة طرابلس ، في ٣٠ سبتمبر .. وضرب حولها الحصار ، وأمهل المدينة ثلاثـــة أيام

للتسليم ..

فلم تستطع الحامية الدفاع اكثر من ساعتين ، لأن مداف (كروب)) القديمة ، كانت قصيرة المرمى ، لا تصل قذائفها الاسطول فاضطرت الى الانسحاب .

وعندئذ ، انزل الطليان جنودهم واحتلوا مدينة طرابلس

وظلت الامدادات تصل تباعاً اليهم حتى بلغت قواتهم ، مدينة طرابلس ، حوالي الثلاثين الف على اقل تقدير .

واما الاتراك ، فقد كانت مراكزهم الأساسية ، بعد انسحاب من مدينة طرابلس ، جنوب المدينة ، وقرروا اتخاذ قاعدة رئيسية لتنظيم المقاومة منه .

وسرعان ما جاءت الأخبار ، من المراكز الرئيسية ، بأن الطليان بدأوا يزحفون ..

وفي اليوم التالي ، نشبت معركة كبيرة ، أسفرت عن ارتداد العدو ، على الرغم من قواته ومعداته العظيمة .

ويعزى فشل الايطاليين ، في كسب هذه الحرب التي استعدوا لها استعداداً عظيماً ، وبدأوها في ظروف ملائمة لهم ، وجلبوا لها

الامدادات والنجدات ، حتى بلغت قوتهم (١٢٠،٠٠٠) جندي نظامي : بمعداتهم واسلحتهم الحديثة الكاملة ، الى جملة اسباب ، اهمها :

ان الطليان كانوا يفضلون دائماً عدم الحركة والاحتماء في خنادقهم ، وخلف خطوطهم المحصنة ، وتأجيل الزحف خوفاً من المجاهدين العرب .

خصوصاً الذين بالغوا مبالغة عظيمة في تقدير أعدادهم ، على الرغم من الاستطلاع الكثير الذي كانت تقوم به طائراتهم فوق مراكز المجاهدين ..

بل إن الخوف ، من هؤلاء المجاهدين البواسل ، كثيراً ما كان يجعل قوة بأسرها تولي الأدبار ، تاركة وراءها سلاحها ومؤنها وذخائرها ، لا تلوي على شيء إذا صادفت في اثناء حركاتها الاستطلاعية كوكبة من العرب المجاهدين ..

فأضاع الطليان : بخوفهم هذا فرصاً عديدة ، لو انهم انتهزوها لاستطاعوا ان يسيطروا على طرابلس الغرب ، في مدة وجيزة .

أضف إلى هذا ، ان الطليان الذين ظهر انهم تركوا القتال

جـــانباً ، وآثروا انتظار ما تحدثه منشوراتهم ونداءاتهم من آثار ، قد تكسبهم الحرب ، من غير حاجة إلى الاشتبـــاك في معارك فاصلة .

كان من سوء حظهم انهم اكثروا من بذل الوعود السخية التي لم يكن في نيتهم المحـافظة على شيء منها .

ولذلك كان اقل ما يجب ان يفعله الغزاة ، بعـد ان ربطوا انفسهم بهذه المواثيق ، ان يحققوا شيئاً من المبادىء التي انطوت عليهـــا ..

ولكنهم بدلاً من ذلك ، أظهروا من ضروب الاستهتار بأرواح الأهلين ، وعقائدهم وشعائرهم وتقاليدهم ..

ثم ارتكبوا من الفظائع التي تقشعر من هولها الأبدان ، مـــا لطخ بالعار إسم ايطاليـا وشرفها ، وجعـــل العرب يخفون إلى ميدان القتال أفواجاً من أقـــاصي البلاد ، بمجرد أن وصلتهم أخبـارها .

وأما اقسى هذه الجرائم وأفظعها ، فكانت تلك التي ارتكبهـا الايطاليون في ناحيـة المنشية ، بعد اسبوع من نزولهم إلى مدينـة طرابلس .

ويتلخص هذا الحادث المروع ، في أن الطليان ، عندما نزلوا إلى البر ، بعد انسحاب القوة العثمانيـة ، عسكرت جنودهم في أطراف المدينة ، بينما تركوا ناحية (المنشية) خلفهم .

فانتهز المجاهدون هذه الفرصة وهاجموا (المنشية) بقيادة بعض الضباط العثمانيين ، في ليل ١٢ اكتوبر ١٩١١ .

فصمدت حاميتها الطليانية إلى الصباح ، وعندئـذ انسحب المجاهدون ..

ولما وصلت النجدات ، عثر الطليان على قتيل في بساتين الناحية . فصبوا غضبهم على الأهلين الأبرياء والصقوا بهم تهمة اغتيال جنودهم ، من غير ان يكلفوا أنفسهم مشقة تحقيق هـذا الحادث ..

وبناء على ذلك . استباح الجنرال (كانيفا) ، ناحيـة المنشية لجنوده ثلاثة أيام قتلوا في أثنائها من الأهلين عدداً يتراوح بين الأربعة آلاف والسبعة آلاف نسمة ، وهتكوا أعراض النسـاء ، والقوا في غياهب السجون ، وفي الثكنات العسكرية ، وفي (مدرسة الصنائع) مئات من الرجال والنساء ..

ونفوا من العرب ، إلى جانب ذلك ، حوالي التسعمائة .

وهكذا أضاف الطليان ، بفعلتهم الشنيعة هذه ، إلى جـانب الدفاع عن ارض الوطن ، ضد العدو المعتدي ، سبباً آخر حرك العرب وأثار حميتهم ، هو الانتقام للضحايا الأبرياء ، وغسل الاهانات التي لحقت بشرفهم ..

ثم عظمت كراهية العرب للطليان لدرجة لم تعد تثمر معها بعد ذلك في خلال السنوات الطويلة التالية ، أية محاولات لإزالة هذه الكراهية او تخفيف حدتها .

وليت فظائع الطليان انتهت عند مذبحة المنشية هذه !!

ولكن هؤلاء الغزاة الذين أعلنوا وضع طرابلس وبرقة تحت السيادة الايطالية التـامة (٦ نوفمبر ١٩١١) ، سرعان ما صاروا يعتبرون المجاهدين لهذا السبب مجرد « عُصاة » و « ثواراً » خارجين على « الحكومة الشرعية » في مقاومتهم .. ويستحقون لذلك الاعدام شنقاً او رمياً بالرصاص ، إذا ما وقعوا في أيديهم .

فطفقوا من ثم ، يشنقون الرجال زرافات ووحداناً من غـير تحقيق أو محاكمة في طرابلس ، ودرنة ، وغيرهمـا من المدن ، ويفتكون بكل عربي « يبلغ عمره الرابعة عشر فما فوق » بتهمة المحاربة في مؤخرة الطليان .. سواء اشترك في أعمال المقاومة ، أم لم يشترك .

وكانت دعوى الطليان في ذلك ، أن مجرد استيلائهم على مدينة طرابلس ، والمدن الأخرى الساحلية ، من شأنه وحده فقط ، أن يجعل جميع العرب الموجودين في هذه الأماكن « رعايا طليان » .

ولذلك ، إذا حمل أحد هؤلاء العرب سلاحاً للدفاع عن نفسه ، او وطنه ، ضد الغزاة المعتدين ، اصبح « ثائراً » ، أو « عاصياً » ، وحق عليه الاعدام عند القبض عليه ، من غير محاكمة !!

ثم أنه كان من اسباب زيادة كراهية العرب للمعتدين الطليان ، ان هؤلاء الغزاة الفاتحين ، بمجرد ان تبين لهم إصرار الأهلين على المقاومة .

وكان الهلع والجبن من أسباب انهزام الطليان تقريباً ، في كل موقعة يشتبكون فيها وجهاً لوجه ، مع المجاهدين البواسل .. سرعان ما صاروا يستقدمون النجدات من (أرتريا) المستعمرة الايطالية في افريقيا الشرقية ..

فاشترك (العساكر) الأحباش في مواقع كثيرة ..

ثم لم يكتف الطليان بذلك ، بل صاروا يستخدمون أيضاً ،

نوعاً من الرصاص المتفجر الذي يحطم اجسام المصابين تحطيماً لا ينفع فيه معالجة ، ولا يرجى منه شفاء ، منتهكين في فعالهم هذه حرمة قوانين الحرب وتقاليدها .

ولعل اعظم اخطاء الايطاليين خطورة ، كان مسعاهم من أول الأمر في أن يكسبوا هذه (الحملة) صبغة دينية عريقة .

فقد بارك قساوستهم اساطيل الحملة عند خروجها ..

ودقت النواقيس ، واقيمت الصلوات ، ووزع رجال الكنيسة الصلبان المهداة من البابا ، إلى هؤلاء الصليبيين الجدد .

وافرط الطليان عند كل مناسبة في الاحتفال بالنصر في كنائسهم مهما كانت هذه الانتصارات المزعومة قليلة الأهميـــة ، ومهما كان مشكوكاً في نتائج المعارك التي وجد الطليان شجـــاعة كافية لخوض غمارهـا .

ثم لم يقنع الطليان بالاحتفال بالنصر في بلادهم ، بل جعلهم سوء التدبير وعدم الفطنة يقيمون هذه الاحتفالات في مـــدينة طرابلس ذاتها ، يقدمون الشكر لله العزيز الذي مكنهم من انتزاع (الهلال) ، وإعلاء (الصليب) مكانه ..

فاثارت هذه الحماقة ثائرة المجاهدين واشعلت في نفوسهم الكراهية

للمعتدين الآثمين .

ولم يكن الأتراك في حاجة لأن يتخذوا من حماقة الطليـان هذه وسيلة لتحريك العرب وحثهم على المقاومة والدفاع عن انفسهم فقد تدفقت جموع المجاهدين بمجرد ان ذاع خبر اعتداء الطليان على طرابلس وبرقـة ..

وسرعان ما ازال اعتداء الطليان كل اثر للخلاف بين الكَفرة والقسطنطينية .

عمر المختار في المعركة

ضرب الطليان بمدافعهم من البحر المواني البرقاوية ، في الوقت الذي اعتدوا فيه على ميناء طرابلس الغرب .

واستطاعوا في ٢٤ اكتوبر ١٩١١ أن يحتلوا طبرق ، ثم نزلوا في درنه .. يوم ١٧ اكتوبر ، ونزلوا في بنغـــازي بعد ذلك بيومين ..

ومن أول الأمر قاومهم العرب مقاومة شديدة ، فالتحموا معهم في الليلة الثانية من نزولهم إلى بنغازي ، وهزموهم في محـلة يقال لها الصابري .

وكان العثمانيون قد اشتبكوا مع الطليان يوم نزولهم نفسه في معركة حامية تعرف باسم (وقعة جوليانة) ..

ولكن الجند العثمانيين لم يستطيعوا الصمود أمام الطليان الذين استمرت سفنهم الحربية تضرب بنغازي بمدافعها من البحر ، فانسحبوا

على مسافة ثلاثين كيلومتراً من المدينـة .

غير ان الموقف سرعان ما تبدل عندما انتشر في طـول البلاد وعرضها خبر اعتداءات الطليان على برقة وطرابلس ..

واستنفر الزعماء السنوسيون في بنغازي وغيرهـــا ، شيوخ الزوايا للجهاد ..

فكان شيخ زاوية المرج ، أول من خرج بجيش ، لنجدة الأتراك ..

فاستنفر قبيلة العرفا – وكان شيخاً على زاويتها – وقبـائل أخرى ..

فكان وصول هذه النجدة مثبتاً لأقـــدام العثمانيين ، الذين استطاعوا مع السنوسيين مقابلة الطليان ، ثم ارغامهم على التقهقر إلى بنغازي ..

وفي بنغازي اطمان الطليان إلى حماية أسطولهم، وأما العثمانيون والعرب فقد اتخذوا (الرجمة) مقراً لهم .

وكان كذلك في مقدمة الذين خفوا لنجدة العثمانيين والالتحام مع العدو في برقة : السيد عمر المختـار .

فقد كان رحمه الله يزور شيوخ السنوسية بالكفرة ، وفي أثناء

رجوعه من هذه الزيارة إلى زاويته (القصور) بلغه نبـــأ نزول الطليان في بنغازي واحتلالهم لها ..

وكان وقتئذ بواحة (جـــالو) ، فلم يلبث بمجرد وصوله إلى (القصور) ، أن أمر قبيـــلة العبيد ، المنتسبة لزاوية القصور بالاستعداد للحرب .. ثم تبع السيد عمر بقية شيوخ الزوايا ..

واستمر السنوسيون بقيادته ، بعد ذلك ، يضيقون الخناق على العدو خصوصاً عند (بنينة) ، حتى جاء القائد التركي أنور بك المصري إلى بنغازي ..

★

وقد اهتم انور بك منذ وصوله إلى برقة بالطواف بالقبائـل وزيارة الزوايا السنوسية ودعوة الجميع للجهاد .

كما كان لوجود كبار السادة السنوسية ، السيد محمـد إدريس ، والسيد محمد الرضا ، والسيد محمد عابد في المعسكر العـثماني ، في هذه الآونة ، اكبر الأثر ، في التفاف العرب المجـاهدين ، حول القائد العثماني .

وعلى ذلك ، فقد استطاع أنور مناوشة العدو بنجـاح ، طول

شهر ديسمبر ١٩١١ ..

ثم التحم المجاهدون مع الطليان ، في معركة كبيرة واستولوا على غنائم كثيرة .. وقتل من الأعداء ، ما يزيد على الألف ، بينهم كثيرون من الضباط .

وعندما تدفق السنوسيين على ميدان القتال ، اشتبك المجاهدون مع الطليان في مناوشات كثيرة ..

ثم التحموا معهم في منطقة بنغازي ، وهاجموا بنغـازي . وتحمل الطليان عناء كبيراً في الدفاع عنها .

وبعد حضور عزيز بك المصري ، قائداً لمنطقة بنغـازي .. جرت وقائع كثيرة ، فهجم العرب على استحكام (مشويليك) ، وقضوا على الحامية الطليانية به .

وفي ٢٢ فبراير سنة ١٩١٢ ، هجم العرب (السنوسيون دائما) على استحكام الطليان عند (اللثامة) .

وعندما حاول الطليان بعد أربعة أيام احتلال (عز يونس) ، على شاطىء البحر ، وزحفوا اليها من جهة استحكامـاتهم في (شويليك) ، صدهم العرب عنها والحقوا بهم الهزيمة .

وفي ١٢ مـارس ، التحم الفريقان في معركة (سواني عبد

الراني) المشهورة عند الطليان باسم معركة النخلتين .

ويقول الأمير شكيب ارسلان :

وفي ١٢ مارس جرت وقعة الفويهات الشهيرة ، وكان سببها ان ٢٠٠ عربي دخلوا بين استحكامي الفويهات والبركة ، فثـار في وجوههم الطليان ، واشتد الحرب ، وأحاط الطليان بهذه المـائتي مجاهد من العرب .

« وقصد عزيز بك المصري ومن معه من العرب ، إمداد هؤلاء العرب فلم يتمكنوا من ذلك بسبب القنابـل التي كانت تتساقط كالمطر من البر والبحر ..

« فلبث هؤلاء العرب يقاتلون مستميتين إلى الظـلام .. وعند ذلك نجـا فلتهم ، ولحقوا بالمعسكر العربي بعد قتال استمر طول النهـار .. ويقـال انه نجا ٨٠ رجلاً ، من المائتين ..

« وأما الطليان ، فقتل وجرح منهم الف وخمسمائة مقـاتل ، بينهم ٢٨ ضابطاً برتب مختلفة ، وجنرال برتبـة لواء ، وأصيب بالجنون عدة ضباط من هول تلك الوقعة .

« وكانت هذه الوقعة قد شقت كثيراً على العرب ، وقـامت

النوادب تندب اولئك الأبطال الذين حالت مدافع الطليان دون إمكان نجدتهم .

« وبينما العرب في مآتم على قتلاهم وردت برقية من أنور ، القائد العام في درنه ، إلى عزيز بك المصري ، قائد مجاهدي بنغازي عن برقية من الاستانة ، عن برقية من برلين ، عن برقية من رومه تفيد ان وقعة الفويهات هذه كانت من أشد المصائب على الطليان ، خسروا فيها الفاً وخمسمائة مقاتل ، ومنهم ضباط كثيرون قتلى ، ومنهم من اصابهم الجنون ، من هول ذلك اليوم .

« وكانت جميع معسكرات الجيش العثماني تبعد عن السواحل مسافات تتراوح من ١٥ كيلومتراً إلى ٢٠ كيلومتراً نحو الجنوب ، وذلك لتكون مصونة من قنابل مدافع الصحراء الطويلة المدى ومدافع الأسطول الايطالي .

« وأما الخطوط الأمامية ، فلم تبعد عن معسكرات العدو اكثر من ٥ كيلومترات .

« وينقسم ميدان بنغازي إلى ثلاث مناطق ، وكان قائدها العام أنور بك (الذي عين وكيل القائد العام في سنة ١٩١٤ في الحرب العظمى) وهي :

« ـ (المنطقة الأولى) ، بنغـــازي ، بقيادة عزيز بك المصرى ..

« ـ (المنطقة الثانية) ، درنة ، بقيادة مصطفى كمال بك ، (رئيس جمهورية تركيا الغازى مصطفى كمال باشا) ..

« ـ (المنطقة الثالثة) ، طبرق ، بقيادة ناظم بك .. »

تركيا تسلم ليبيا

إلى ايطـــاليا

بيد أن الحرب الليبية ـ الايطالية ، في هذه الآونة ، كانت قد وصلت « من الوجهة الرسمية » إلى نهايتها بين تركيا وإيطاليا ، عندمـــا قبل العثمانيون ، تحت ضغط الدول الأوروبية ، وبسبب الهزائم التي أصابتهم في ميادين اخرى ، الدخول في مفاوضة من اجل عقد الصلح مع إيطاليا ..

وبدأت هذه المفـــاوضات فعلاً في لوزان ، في ١٢ يوليو ١٩١٢ .

ولم تؤثر رغبة المجاهدين ، في الأقطار الليبية شيئاً ، في تعطيل أو وقف مفاوضات الصلح ..

حتى إذا تلبد الافق السياسي في بلاد البلقـــان ، وتحرجت الامور في هذا الجانب من ممتلكات الدولة العثمانية ..

ووجدت تركيا ، أن لا مناص لهـا من خوض غمار حرب جديدة في النهاية ، بادرت الوزارة بانتداب أحد أعضائها للسفر إلى المؤتمر مزوداً بسلطات واسعة ..

فوقع الفريقان على معاهدة الصلح في اوشي (لوزان) في ١٨ اكتوبر ١٩١٢ ..

وبمقتضاها تعهدت الدولتان بايقاف الحرب ، وتعهد العثمانيون باستقدام ضباطهم وجيوشهم وموظفيهم المدنيين من طرابلس ..

ومع هذا ، فقد كان موقف العثمانيين وقتئذ في غاية من الحرج فهم من ناحية ، كانوا مضطرين إلى التفرغ لمواجهة الحرب الجديدة في البلقـان .

بينما كان تخليهم من ناحية أخرى عن طرابلس الغرب ، أمراً يسقط من هيبتهم في نظر شعوب العرب .. وبلدان الخلافة الاسلامية ..

أضف إلى هذا ، أنه لم يكن من الهين .. على الحكومـة العثمانية .. أن تقبـــل انسلاخ الأقطـار الليبية .. عن جثمان الدولة ..

ولذلك ، ظلت تركيا ، في الفترة القصيرة التـالية من تاريخ

توقيـع معاهدة (أوشي) ١٩١٢ ، إلى وقت قيام الحرب العالميـة الأولى ١٩١٤ .. تتردد بـين أمرين :

بذل المساعدة للسنوسيين وحضهم على مواصلة الكفـاح والقتال ضد إيطاليا .. أو العمل على احترام نصوص المعاهدة ومنع المساعدة عن السنوسيين ، خوفاً من استثارة الطليان ، ضد تركيـا ، في الحرب البلقانية ..

وقد استمرت تركيا مترددة بين هذين الأمرين ، حتى إذا قامت الحرب العالمية الأولى ، قررت مؤازرة السنوسيين . وذلك مما جعل من الأقطار الليبية ميداناً للحرب تشنها على الدول المتحالفة الغربية ، وخصوصاً عندما انضمت إيطاليا في عام ١٩١٥ إلى جانب هذه الدول المتحالفة .

وعلى ذلك لم يتوقف الجهاد ضد الإيطاليين في ليبيـــا ، على الرغم من توقيـع تركيا معاهدة (أوشي) .

وعبثا حاول الطليان ان يثنوا القائد العام الجديد عن مواصلة الكفاح ، عندما أبلغوه نبأ عقد الصلح ودعوه إلى التسليم ؛ فقـد أبى عزيز بك أن يسلم اليهم وقرر الجهاد إلى النهاية ، واظهر في ذلك الكفاح السيد عمر المختار بسالة نادرة ومقدرة كبيرة .

عزيز المصري يقود المعركة

استأنف عزيز المصري العمليات العسكرية في برقة ، بكل جد وهمة رغم تسليم تركيا البلاد إلى إيطاليا .

وفي هذه الظروف ، قررت الحكومة الايطالية احتلال الجبل الأخضر ، والتحم الطليان مع المجاهدين في معارك متعددة في المنطقة الغربية والوسطى .

وفي ١٦ مايو ١٩١٣ ، حصلت في الجبل الأخضر (واقعة يوم الجمعة) المشهورة ، وهي الواقعة التي اشترك فيها السنوسيون مع القبائل ، وساهم فيها الضباط العثمانيون ، وانهزم الطليان وارتدوا إلى درنة .

بيد ان الصعوبات الشديدة سرعان ما أحاطت بالمجاهدين من كل جانب لانقطاع الموارد عنهم من أسلحة وذخائر ومؤن وغير ذلك ، ثم بسبب ما نجم عن الضغط الجديد الذي استخدمته إيطاليا مع الدولة العثمانية حتى تأمر هذه الأخيرة باستدعاء بقية القوات

التي ظلت تحارب في برقة بالرغم من عقد الصلح ، وتكف عن مساعدة المجاهدين إطلاقاً ..

أضف إلى هذا ، ما فعلته إيطاليا ، حتى تصرف الحكومة المصرية عن إمداد المجاهدين في برقة بما يحتاجون اليه من أسلحة وذخيرة ومؤن .

وكان الشعب المصري من اسبق الشعوب إلى نجدة المجاهدين ومساعدتهم .. إلا أن الحكومة المصرية ـ وقد كانت حكومة انجليزية ـ وقفت من أول الأمر موقف الحياد من النزاع القائم ، فعين الانجليز بدلاً من المامورين المصريين في الحدود الغربية .

ومنعوا اهل برقة وطرابلس من دخول الأراضي المصرية ، وفرضت على الحدود مراقبة صارمة حتى تعطلت التجارة بين طرابلس ومصر ، وأرغمت على العودة كل قافلة جاءت بالمتاجر من هذه الأقطار الليبية ، ورفض (اللورد كتشنر) المعتمد البريطاني في مصر ارسال « بعض أورط » من الجيش المصري لمساعدة الأتراك ، كما رفض الموافقة على تطوع جماعة من الضباط المصريين في الجيش التركي ، وصرف بعض مشايخ الغربان عن رغبتهم في الالتحاق بصفوف المجاهدين في ليبيا ..

فكان لهذه الاجراءات أثر ظاهر في إضعاف قوة المقاومة ضد

الطليان في ليبيا ..

ووسط الايطاليون الخديوي عباس الثـــاني ، حتى يقنع السنوسيين بضرورة الاخلاد إلى السكينـــة .. ويجزل لهم الوعود الطيبة ، إذا هم قبلوا الأمر الواقع ، وكفوا عن مواصلة الجهاد ..

فقبل الوساطة .. ولكن السيد ، رحمـــه الله كان مصراً على ضرورة جلاء ايطاليا عن البلاد كلية قبل التفـــاهم ، في أي شيء ..

فاخفقت هذه الوساطـة ..

بيد ان متاعب السنوسيين والمجاهدين في أثناء هـذا النضال الشاق ، لم يكن مقدراً لها ان تنتهي عند ذلك ..

فإنه سرعان ما تعكرت العلاقات في معسكر المجاهدين بـين القائد العام (عزيز بك المصري) وبـين العرب ..

ونجم عن ذلك حوادث يؤسف لوقوعها .

فقد صادف ان جاء وقت الحصاد ، في عام ١٩١٣ ، في أثنـاء اشتداد المقاومة ضد ايطاليا ..

فاضطر اغلب المجاهدين العرب ، إلى ترك الجيش والذهـاب للحصـاد ..

فعلم الايطاليون بذلك ، وانتهزوا الفرصة للهجوم على الجيش على غرة ، ولم يكن وقتئذ (عزيز المصري) موجوداً ..

فانسحب الجيش بمعداته الحربية إلى معسكر درنه .. واشتبك عزيز المصري مع الايطاليين في معارك دامية ، وانتصر المجاهدون على العدو في جملة وقائع ، وألحقوا به خسائر فادحة ..

وأخذ المجاهدون أسرى كثيرين بعثوا بها إلى (زاوية العزيات) لبعدها عن ميدان القتال ..

وأراد عزيز المصري ان يطلق سراح بعض هؤلاء الأسرى ، فعارض السنوسيون ، وكان هذا مبدأ سوء التفاهم بينهم وبين عزيز بك المصري ..

وازداد سوء التفاهم هذا عندما وصلت إلى عزيز المصري بعد ذلك برقية من الحكومة العثمانية تأمره بالانسحاب بمن معه من الضباط والجنود من برقه إلى السلوم حيث يجدون في انتظارهم باخرة عثمانية لنقلهم إلى تركيا ..

فشرع عزيز المصري يتجهز للانسحاب بما كان لديه من قوة وسلاح وذخيرة ، نحو الحدود المصرية ، وكان غرضه من الانسحاب بجنده النظامي وأسلحته ، ان يكون مستعداً لمقابلة الطوارىء في

أثناء إنسحابه إلى السلوم

ولكن هذا التصرف من جانب القائد العـــام لم ينل رضاء المجاهدين ، الذين عولوا على مواصلة القتال ضد جند إيطـــاليا ..

فساءهم أن يخرج عزيز المصري ، بجنده النظـامي ، وأن يحرم المجاهدون الأسلحة والذخائر التي كانوا بحاجة شديدة اليهـا بسبب انقطاع الموارد عنهم .

فطلبوا إلى القائد المنسحب ، أن يسلمهم الأسلحة الـتي مـع عسكره إلى العرب ، لا يتفق مع الأصول الحربيـة التي تقضي ، بعد انعقاد الصلح بين تركيا وإيطاليا ، بالا يسلم العسكر العثماني أسلحته لأعداء إيطاليا ..

زد على ذلك ، انه كان فيما يفعل ، يذعن للأوامر التي وصلته من حكومة الآستانة ..

بيد أن ذلك ، لم يكن ليقنع المجاهدين الذين ، عندمـا يئسوا من تسلم الأسلحة سلماً كلف السيد عمر المختار لأخذها عنوة .

ولكن قبل وصول السيد عمر ، كان المجاهدون من قبله ، قد أطلقوا الرصاص على الجند المنسحبين .. وكان هؤلاء قد خيموا ، في (دفنه) غربي السلوم ، فصمدوا لهم ..

ومن ثم نشبت معركة حامية فسقط من العرب أكـــثر من الستين قتيلاً ، وتقاطرت جموعهم من كل جهة بغية الانتقـام من (عزيز المصري) وعسكره ، وكاد يحدث التحام كبير ؛ لولا أنه استطاع الوصول إلى السلوم ..

وفي ١٦ يوليو ١٩١٣ .. بلغ الاسكندرية ، ومنهـا ذهب إلى الآستانـة .

عمر المختــار

يتسلم القيــادة

انسحب عزيز المصري بكامل قواته وسلاحه ، وبقيت البلاد خالية من وسائل الدفاع ومعرضة لهجوم العدو ..

وفي هذه الظروف الشديدة ، صمد السنوسيون في وجـه الطليان ..

ثم أسندت قيادة المجاهدين إلى السيد عمر المختار ..

ولم يتردد هذا المغوار في قبولها ، فشكل جيشاً وطنياً جعل من خطته التزام الدفاع والتربص بالعدو ..

حتى إذا خرج الطليان من مراكزهم ، انقض المجاهدون عليهم فأوقعوا بهم شر مقتلة ، وغنموا منهم أسلاباً كثيرة أمـدتهم في

الحقيقة باكثر الأسلحة والعتاد ، ودواب النقل ، مما كانوا في حاجة ملحة اليه جميعه ..

وظل الحال على هذا المنوال ، حتى نشبت الحرب (العظمى) العالمية الأولى في أغسطس ١٩١٤ .

بقي السنوسيون وحدهم يديرون دفـــة الحرب ، في الشهور التـالية ..

فوزعوا جنودهم النظاميين على مراكز متعددة في المنـــاطق المختلفة حتى يجمعوا حولهم القبائل العربية في جهود متصلة ضد الايطاليين الذين كانوا قد فصلوا برقة عن طرابلس ..

وأنشأوا ، لكل من الاقليمين ، حكومة منفصلة منذ سبتمبر ١٩١٣ .

ولما كان السنوسيون ، قد اتخذوا خطة مفاجـأة المعسكرات الايطالية واشعال الثورة في الجهات التي يمثلها الطليان ..

فقد اضطر الطليان إلى تقسيم قواتهم إلى جماعات على استعداد لمقابلة هجوم المجاهدين والاغارة على مراكز العرب في الجهات التي دخلت في حوزة الطليان .

وعلى ذلك اشتبك الايطاليون مع المجاهدين في جمـــلة معارك بدأت من فبراير ١٩١٤ .

بيد أن اشتعال الحرب الكونية الأولى ، لم يلبث ان ادخل تغييراً كبيراً على الموقف في برقة ، وأحيى آمـال السنوسيين في القدره على مواصلة الكفاح بنجاح ضد ايطاليا .

في الحرب العالمية الاولى

اسرعت تركيا بالدخول إلى جانب ألمانيا ، لأنها كانت عظيمة الثقة في انتصار الألمان على الحلفاء (انجلترا ، وفرنسا ، والروسيا) ..

هذا .. بينما انحازت ايطاليا إلى جانب هذه الدول المتحالفة في مارس ١٩١٥ ، لتحقيق مطامعها في البحر الأبيض المتوسط ، وفي أفريقيا الشمالية ..

وهكذا وجد الأتراك أنفسهم في نزاع جديد مع إيطاليا ، وعندئذ قرروا استئناف النضال في الأقطار الليبية .

ولم يدفع الاتراك إلى مؤازرة السنوسيين في هذه المرة سوى رغبتهم في اتخاذ برقه ميداناً يرسلون منه جيشاً كانوا اعتزموا إعداده لغزو الاراضي المصرية ..

لان الالمان قرروا ، بالاشتراك مع العثمانيين ، إرسال حملة من الشام للاغارة على قناة السويس وغزو مصر من الجهة الشرقية ، ورأوا لضمان نجاحها ، انه لا بد أن يشغل الانجليز ، في الوقت نفسه ، بأمور الدفاع عن مصر ، من جهة حدودها الغربية ، حتى تتوزع قواتهم .. ويسهل على الالمان والعثمانيين ، تنفيذ مآربهم ..

وحضرت الرسل من قبل الاتراك والالمان لمقابلة السنوسيين ، وجاءوا في غواصة المانية أنزلتهم بالسلوم ..

وتمت المقابلة .. وكان واضحاً أن الاتراك والالمان ، إنما يريدون أمراً واحداً فقط ، هو ان يشترك السنوسيون معهم في الهجوم على حدود مصر الغربية .. وتجهيز حملة كبيرة لهذه الغاية ..

ولم يكن من رأي السنوسيين ، ولا من رأي بقية المجاهدين ، مهادنة إيطاليا ، ذلك العدو القديم ، ومنازلة دولة هي إنجلترا ، لم يقم بينها وبين السنوسيين ، حتى هذا الوقت ، سوى أحسن العلاقات واصفاها .

وكان السيد محمد إدريس المهدي ، إبن عم السيد أحمد من أشد المعارضين لمشروع الحملة ضد الحدود المصرية .

وأخـــيراً ، وبعد تردد طويل ، قرر السنوسيون ، أن يشتركوا مع العثمانيين والالمان ، في الزحف على حـــدود مصر الغربية .

وعندما وصل السنوسيون إلى هـذا القرار ، استُدعي نوري بك رسول الأتراك ، وخاطبه السيد قائلاً :

« هوذا أنا حاضر للمسير فلا تقدر أن تقول إن العائق كان مني ، وإنما إذا فشلت هذه الحملة فلا أكون أنا المسئول » .

وعندئذ أرسل السنوسيون قوة لاحتـــلال سيوه ، فتم لهم ذلك ، وأما السيد نفسه ، فقد سار بالجيش ـ وعـــدده أربعة آلاف مقاتل ـ ومعه القائدان التركيـــان ، وغرضهم الهجوم على السلوم .

فأخلى الانجليز ، منطقـــة السلوم ، ثم (بقبق) وتقهقروا داخل الحدود ، وانذروا في الوقت نفسه القائد العثماني (نوري) ، بأنه إذا تجاوز بجيشه نقطة سيدي براني إلى الشرق ، صمـدوا له وقامت الحرب .

ولكن نوري لم يأبه بهذا الانذار ، بل ظل في تقدمـه حتى تجـــاوز العرب سيدي براني .. وبلغوا في زحفهم غربي مرسى مطروح ..

وعندئذ جهز الانجليز لقتالهم جيشاً بلغ الثلاثين ألفاً من مشاة وفرسان إلى جانب عدد كبير من المدافع ، فقامت بين الفريقين معارك ساهم فيها محمد صالح حرب ، قومندان مرسى مطروح بنصيب وافر .

*

وقصة محمد صالح حرب هنا قصة شائقة ..

ذلك أن القوات المصرية الخاضعة للقومندان المصري (محمد صالح حرب) في ذلك الوقت كانت موزعة بين مرسى مطروح والسلوم وسيدي براني وقربة (عند واحة سيوه) .

وكانت قوته في المرسى ، تتراوح بين خمس وأربعين وخمسين جندياً ، عدا أربعة من الضباط و (باشكاتب القسم) فخرج بهم جميعاً وسط السيارات المدرعة ، وكانوا جميعاً ما عدا أحد الضباط فقط يجهلون نواياه .

ولم يشك الانجليز في أنه كان يعتزم القيام بعملية كشف (أو دورية) بوصفه قومندان مرسى مطروح ، فافسحوا له الطريق ، واتجه صوب السلوم ..

ثم أخذ يمر في طريقه بعمد ومشايخ مرسى مطروح ويضمهم

اليه ، وعند الفجر ، جمع صالح حرب الرؤساء والضباط والمشايخ والعمد وخاطبهم قائلاً :

« نقف الآن بين معسكرين ، أحدهما معسكر الانجليز .. أعداء الله والوطن ، الذين رفعوا علينا الحماية ، والآخر معسكر العرب والأتراك الذين يقولون إنهم جاءوا ليخلصونا ، وقد أقنعني ضميري وواجبي الديني ، بعدم البقاء مع الانجليز ، وقد خرجت في سبيل الجهاد ضدهم ، فمن كان منكم يحرص على حيـــاته ، أو تلزمه أية مسئوليات عائلية بالعودة إلى مرسى مطروح ، فـإنني لا أحول بينه وبين العودة ، إنما على شريطة أن يترك ما معـه من سلاح ومؤونة » .

فلم يرغب أحد منهم في العودة ، بل أبدوا جميعهم تصميمهم على البقاء إلى جانب رئيسهم :

« يعيشون معاً .. ويموتون معاً » ..

وعاهدوا الرئيس على الجهاد ، ومن ثم بـدأت الثورة بصورة علنية ، واستجاب له عربان قبائل أولاد علي ..

ثم انتشرت الثورة في انحاء الصحراء الغربية حتى مريوط .. وكان انتشارها مفاجأة للإنجليز ، لأنه ما كان يخطر ببالهم أن يثور أولاد علي والضباط المصريون عليهم .

وسرعان ما نشبت بين الانجليز ، والجيوش الزاحفة معركة بئر تونس ، وكانت حامية الوطيس ، غير أن المجاهدين كانت تنقصهم المؤن والذخائر فاضطروا إلى التقهقر .

وعندئذ عقد السنوسيون مجلساً حربياً لبحث الحالة ، وما وصلت اليه من تدهور ، وأنحوا باللائمة على الأتراك الذين تسرعوا في بدء هذه العمليات العسكرية ، على الرغم من عدم استكمال الاستعدادات اللازمة لها .. الأمر الذي سبب تردد السيد أحمد ، واعتراضه السابق عليها .

ثم قال السيد مخاطباً القواد الأتراك :

« فما رأيكم وقد أوصلتمونا إلى هذا الحال ، وظهر اني كنت على هدى وكنتم على ضلال ؟ »

وبعد تداول الرأي ، رأى السنوسيون أن تنقسم القوة فريقين ، فريق يذهب إلى الجنوب وهدفه احتلال الواحات ، وكان يتألف من حوالي خمسمائة وثلاثة آلاف جندي ..

وفريق آخر وعدده ستة آلاف جندي تقريباً يبقى في الشمال ..

وعهد بقيادة الجناح الجنوبي إلى محمد صالح حرب بينما تولى جعفر العسكري قيادة الجناح الشمالي ..

وبقي نوري باشا قائداً عاماً على الجناحين على أن يظـــل مع جعفر باشا العسكري في الشمال ، وينتقل السيد أحمد الشريف إلى الجنوب ..

ثم منح السيد أحمد ، بما له من الحق كنائب الخليفة الأعظم ، رتبة اللواء الفخرية لصالح حرب باشا ..

ثم قصدت قوة نوري بئر الكلاب ، بيـــنما تحركت قوة صالح حرب والسيد أحمد الشريف قاصدة سيوه .

★

وحدث عند بئر الكلاب ، أن فاجأ الانجلـــيز قوات نوري وجعفر العسكري ودارت بين الفريقـــين معركة شديدة عرفت باسم معركة العقاقير شرقي سيدي براني في فبراير ١٩١٦ ..

فكانت معركة فاصلة ، جرح فيهـــا جعفر ، وأفلت نوري من أيديهم .. باعجوبة بعد أن أبلى ، هو وضباطه والجيش .. بلاء حسناً .

وكان من أثر هذه المعركة أن تشتت شمل القوات الشماليـــة تماماً ، واستطاع الانجليز مطـــاردة فلول الجيش ، وتعقبتهم السيارات المدرعة متوغلة في برقة ، حتى دخـــلوا السلوم ، في

مارس ١٩١٦ ، واستولوا على معسكر السنوسيين والمجاهدين بها .

واستطـــاعت قوة صالح حرب ، الوصول بسلام إلى سيوه ، ثم نزلت من سيوه إلى الواحات البحرية والفرافره والداخلة .

واستمرت حرب العصابات ضد الانجليز ، طول عام ١٩١٦ ، وأوائل العام التالي .

وكان أفرادهـــا يقاسون شظف العيش ، حتى انهم كانوا لا يجدون ما يرتدون أو ينتعلون .. وصاروا يعيشون على التمر وحده عدة شهور .

واستمرت أعمال العصابات مقصورة على مهاجمة معسكر الإنجليز في الخارجة والاشتباك مع دورياتهم بينما ظل هؤلاء يلقون قنابلهم من الطائرات على العصابات ومراكز المجاهدين .

وأفلح صالح حرب في الغرض الذي سعى اليه من هذه الحركة وهو احتجاز قوات إنجليزية كبيرة على الحدود الغربية .

وفي القطر المصري كان الانجليز في أشد الحاجة اليها في حملة الدردنيل المشهورة .

واضطر الانجليز آخر الأمر ، إلى وضع خطة عسكرية كبيرة الغرض منها القضاء على حرب العصابات قضاء مبرماً .

فقرر صالح حرب الانسحاب بقواته ، وتم الانسحـــاب في ظروف عسيرةٍ شاقة ، حتى وصلوا إلى الجغبوب .

ثم غادر المجاهدون الجغبوب إلى واحات جـالو ، وأوجله على الرغم من طول المسافة .. ومشقات السير ، وانعدام وسائل النقل الكافية ..

ثم وصلت السيد احمد دعوة من استانبول لحضور حفلة تتويج السلطان الجديد محمد وحيد الدين (السادس) ، فغادر السيد أحمد الشريف ومعه محمد صالح حرب طرابلس على نفس الغواصة الألمانية التي أحضرت هذه الدعوة .

غير أنه قبل مغادرة السيد أحمد الشريف الأقطار الليبية بمده طويلة .. كانت زعامة المجاهدين في ليبيا ، قد انتقلت إلى السيد إدريس السنوسي .

السيد

محمد ادريس المهدي السنوسي

نزل السيد أحمد الشريف عن الزعامة إلى صاحبها الشرعي الذي كان وصياً عليه ..

وحمـــل السيد محمد إدريس السنوسي الرسالة في وقت شاق وظروف عسيرة .

فبعد الفشل الذريع الذي اصاب المجاهدين تحت زعامة السيد أحمد الشريف على أيدي الانجليز ..

كانت برقة تعاني الأمرين من جراء انتشار المجاعة بها وقتذاك ١٩١٥ ، بسبب احتباس المطر ، وغزو الجراد في العام التالي للبلاد حتى أتى على الزرع وانتشر وباء الطاعون (خصوصاً في عـــام ١٩١٧) ..

وظل المطر محتبساً طوال هذه المدة تقريبـاً .. فكان أعظم بلاء شهدته برقة في تلك الآونة ، هو بلاء المجـاعة التي تسلل شبحها المخيف يهدد البلاء بالفناء العاجل ، عندمـا صار يموت الألوف من الأهلين جوعاً ، فامتلأت شوارع اجـدابيه بأشلاء الموتى ، واضطر الأحياء إلى أكل لحوم هؤلاء الموتى .

بل ذهب الجوع بعقل إمرأة فأكلت لحم ابنة لها ..

وطلب الأحياء الهزالى ، مـا يسدون به الرمق من أي سبيل .. واضطر كثيرون منهم ، إلى تسليم مـا معهم ، من الأسلحة .. إلى الأعداء الطليان .. لقـاء حفنة من الأرز يتبلغون بها .

هذا ، بينما الحدود المصرية مغلقة ، والمتاجر معطلة ، وكل شيء ينذر بالفناء .

وقد كان السيد محمد إدريس معارضاً في الحملة على مصر .. وكان لا ينفك يكرر النصح للسيد أحمد حتى لا ينساق في أعمـال عدائية مع الأتراك ضد الانجليز لما يسببه ذلك من أضرار جسيمة تلحق بالأقطار الليبية لا محالة ..

وأمـام هذا كله ، وافق السيد الشريف ، على أن يبـدأ

السيد إدريس المفـــاوضات مع الانجليز .. لانقاذ البلاد مما هي فيـه ..

واشترط الانجليز ، ضرورة الاتفاق مع الطليان ، قبل أن يتفقوا هم مع السنوسيين .

وقبل السنوسيون ذلك لظروف البلاد القاسية ، وحدث اتفاق مبدئي بين السنوسيين والطليان من جهة ، وبينهم والانجليز من جهة أخرى .

وكان السيد محمد إدريس يقصد من عقده مع الايطاليين هـذا الاتفاق ، تحقيق أهداف معينة ..

أولها : إنهاء حالة الحرب التي أخذت بالبلاد وأهلها ، ثم فتح طرق للتجارة بين داخل البلاد وثغورها التي كانت بأيدي الايطاليين من وقت ابتداء الحرب .

ثم احترام الشعائر الاسلامية والمحـــافظة على الدين الاسلامي وأنظمة الشرع الحنيف والثقافة العربية .

وأخيراً ، رفع الأضرار التي لحقت بالجمـــاعة السنوسية بأجمعها ..

ولا شك ، في أن السيد قد حقق مصالح المجاهدين العرب إلى أقصى غاية ..

وبسط لواء الأمن والسلام في برقـة ، حتى تهدأ الأحوال في هذا القطر اولاً ، ويتنفس الأهـلون الصعداء عند زوال الكرب الذي نزل بهم .. بسبب امتناع الأقوات والارزاق عنهـم ..

وكان من نتائج الاتفاق مع الطليان المباشرة كذلك ، إبرام اتفاق آخر مع الانجليز ، وفتح طريق السلوم للتجارة بين مصر وبرقـة ..

وهو هدف زعماء وشيوخ البلاد .

ولا جدال ، في أن مصلحة البلاد ، كانت تقتضي إنشاء الحكومة الوطنية المنظمة ، يهيمن على شئونها السيد إدريس .. الذي استطاع بحكمتـه وبعد نظره ، ان يقر السلام في القطر البرقاوي ، حتى بدأ الاهلون ، من ذلك الحين ، يلقبون السيد « بالمنقذ » .

وضربت برقة مثلاً حياً لمـا يمكن أن يبلغه قطر يستمتع بوجود زعامة حازمة صالحة ، بينما كانت الاحوال في طرابلس على عكس ذلك ..

كانت الفوضى تضرب أطنابها ، ويتقاتل زعماؤها دائماً على أسلوب عهود الاقطاع .

واخيراً قر رأي الزعماء الطرابلسيين على مبايعة السيد محمد إدريس أميراً عليهم ، فيجمع بذلك إمارة القطرين : برقة وطرابلس في قطر واحد ..

ذلك انهم ادركوا أنه لا سبيل إلى الخلاص البتة ، إلا بالاتفاق والتعاون مع برقة ، وانحياز برقة إلى جانب طرابلس في القتال ضد العدو الايطالي .

وقدم زعماء طرابلس كتاب البيعة ، بعد ان وقعوا عليه إلى الامير ..

وأجاب الامير عليه قائلاً :

« وبعد ، فقد تناولت بيد الشكر عريضتكم التي أظهرتم فيها رغبتكم الخالصة في تحقيق غايتكم التي أجمعتم عليها في مؤتمر غريان وجاهدتم لها جهاداً صادقاً بالانفس والثمرات في شخصي ، فاخذتها داعياً الله أن يحقق آمال هذه الامة ، ويكلل مساعيها كلها بالنجاح .

« ولما كان اتحاد الوطن وسلامته هما الغاية التي طالما سعيت اليها وجدت من واجبي أن اتلقى طلبكم بالقبول ، وأن أتحمل

المسئولية العظمى التي رأت الامة تكليفي بها ، فعلي إذن أن أعمل بجد معكم ..

« ولكن لا تنسوا ، إنني بغير إقدامكم وجدكم لا قدرة لي على شيء .. إني أعلم أن الحياة الخالدة هي للأمم لا للأفراد ، وكذلك الاعمال العظيمة الباقية ، هي التي تنصرف الى صالح الجميع .

« فلذلك أدعوه سبحانه وتعالى أن يهدينا إلى كل عمل ثمرته للأمة .. من حق كل شعب أن يسيطر على شئونه ، والناس منذ نشئوا أحرار .

« وقد أظهر شعبنا في كل أدواره ، مقدار محبته للحرية ، فدفع مهوراً غالية ، فلا يصح لاحد أن يطمع في استعباده والاستبداد بشئونه .. لقد اشترطتم عليّ الشورى ، وهي أساس ديننا ، وسأعمل على قاعدتها .. الخ » .

كان قبول البيعة في نوفمبر ١٩٢٢ ، بدء ظهور عداء الطليان للأمير .. حيث كانوا يتوجسون خيفة من توحيد كلمة القطرين الشقيقين .

فحاولوا التخلص منه بشتى الطرق ، ولجأوا إلى أخس هذه الطرق وأشدها جبناً ، بأن دسوا له السم في العقاقير التي يتناولها ، ولكن الله سلم ونجا الامير من كيدهم .

وكانت الامور قد ازدادت سوءاً بينه وبين الحكومة منـــذ حدث الانقلاب الفاشستي بايطاليا في اكتوبر ١٩٢١ .

حتى اضطر الأمير إلى مغـــادرة البلاد ، ونزل مصر معززاً مكرماً من حكومتها وشعبها ، فبلغ القاهرة في ٢٧ يناير ١٩٢٣ ، وذلك بعد أن نظم وسائل الكفاح ضد الطليان .

تعيين عمر المختار

قائداً أعلى

نظم الامير خطة الجهاد قبل أن يرتحل عن بلاده ، وقر رأيه على أن يعهد بالاعمال السياسية والعسكرية ، في برقة ، إلى السيد عمر المختار نائباً عنه في تنظيم معسكرات المجاهدين ، على أن يتولى قيادتها جميعاً ..

كما نظم الجهاد في طرابلس ، وأعطى الاوامر اللازمة لاستمراره على أحسن حال .

إلا أن الاقدار أرادت أن يتوقف الجهاد بطرابلس لاسباب ليس هنا مجال تفصيلها .

وكان ذلك معناه أن الثورة قد انتهت فعلاً ، وأن الامر قد استتب للطليان في طرابلس أخيراً .. وأن برقة وحدها هي التي أصبحت

تحمل على عاتقها عبء الجهاد منفردة ضد العدو .

فوقع بذلك العبء كله ، على السيد عمر المختار ، وكان البطل أهلاً لذلك .

وأول الصعوبات التي قابلت المختار أن والي برقة الجديد كان قد بدأ يحل المعسكرات المختلفة في برقة عنوة واقتداراً ، فحلت الحكومة في مارس كثيراً منهـا ..

ثم احتل اجدابية ذاتها في أبريل ١٩٢٣ ، وهي مقر الإمـارة السنوسية ، وأعلن :

« أن كل الاتفاقات التي أبرمتها ايطاليـــا مع السنوسية قد أصبحت لاغية ، ولا أثر لها ، وان السنوسية قد أصبحت مجرد طريقة تشبه غيرها من الطرق الاسلامية ، وان نشاطهـا يجب ان يظل نشاطاً دينياً محدوداً فحسب » .

وفي ٣ مايو قابل الوزير الايطالي في مصر ، الامير وأبلغه ان الاتفاقات التي عقدتها إيطاليا مع سموه قد أصبحت لاغيــة ، ولا وجود لها ..

ومن ذلك الحين ، بدأ النضال من غـــير هوادة او لين بين المجاهدين والطليان في برقة .

وكان المجاهدون منذ احتلال إجدابيــــة ، قد انسحبوا إلى الجنوب ، ثم رابطوا في زاوية القطوفية ، وجعلوا منها قـاعدة لمناوشة الطليان في إجدابية ..

وشرعوا يوسعون دائرة عملياتهم حتى تشمل منطقة الجبـــل الاخضر بأكملها بقيادة السيد عمر المختار .

ووجد المختار ، وقد استؤنف الجهاد ، على نطاق واسع ، أن من واجبه الاتصال بالامير فوراً حتى يطلعه على مــــا وقع من حوادث ويتلقى من سموه التعليمات المفصلة بصدد الجهـــاد ضد العدو .

وعلى ذلك ، فقد قرر السيد عمر المختار ، الذهاب إلى مصر ، واستطاع اجتياز الحدود في منتصف عام ١٩٢٣ .

ثم تمكن من مقابلة السيد إدريس (بمصر الجديدة) ولقي كل إعزاز وتكريم .

وكان المختار عظيم الولاء للسنوسية وزعمائها وشيوخها ، وقد أظهر مبلغ ولائه العظيم لها في أثناء إقامته بمصر عندمـــا حاول جماعة من قبيلة السيد عمر المختار ، وكانوا قد اقاموا بمصر ، أن يقابلوا السيد عمر للترحيب به .

فاستفسر المختار ، قبل ان يأذن لهم بذلك عما اذا كانوا قـد

سعوا لمقابلة الامير عند حضوره إلى مصر ..

فلما اجاب هؤلاء بالنفي معتذرين بأن اسباباً عائليـــة قهرية منعتهم من تـادية هذا الواجب .. رفض المختـار مقـابلتهم قائلاً :

« وكيف تظهرون لي العناية وتحضرون لمقابلتي ، وأنتم الذين تركتم شيخي ، الذي هو ولي نعمتي وسبب خيري ، أمـــا وقـد فعلتم ذلك ، فإني لا أسمح لكم بمقـابلتي ، ولا علاقة من الآن بيني وبينكم » .

فما أن بلغ السيد إدريس ما فعله المختـار مع الجماعة ، حتى أصدر اليه أمره بمقابلتهم فامتثل المختار لأمره .

وهذه ظاهرة تنم عن إخلاص الرجـــل لمبدئه وللدعوة التي ينتسب اليها .

وإن الرجل يرى ، أن من لم يحفل بدعوته يجب عليـه أن لا يحفل بـه كذلك .

والواقعة الأخرى التي تدل على معدن الرجل الكريم ، أنـــه حدث عند خروجه من القاهرة إلى برقة لمواصلة الجهاد ، أن اجتمع مشايخ قبيلته الموجودون بمصر من المتقدمين في السن وحاولوا أن يثنوه عن عزمه بدعوى أنه بلغ من الكبر عتيـــاً ... وأن

الراحة والهدوء الزم له من أي شيء آخر ، وأن باستطاعة السنوسية أن تجد قائداً غيره لتزعم الثورة والجهاد في برقة ..

فغضب المختار غضباً شديداً ، وكان جوابه قاطعاً فاصلاً ، فقال لمحدثيه :

« إن كل من يقول لي هذا الكلام لا يريد خيراً لي ، لأن ما أسير فيه إنما هو طريق الخير ولا ينبغي لأحد أن ينهاني عن عن سلوكها ، وكل من يحاول ذلك فهو عدو لي » .

تلك الكلمات تدل على نفسية المختار دلالة ما بعدها دلالة ، تدل على أن الرجل كان شهيداً يمشي على الأرض .

كان يريد أن يقاتل ويقاتل حتى يستشهد ، ويلقى الله شهيداً ، وتلك هي نفسية المؤمن المخلص الصادق .

يحب الموت أكثر من حبه للحياة ، ويحب الآخرة أكثر من الدنيا .. لأنه يعلم عن يقين أن الحياة الحقة ، هي الحياة الآخرة لا الحياة الدنيا ..

وقد جاءه الشيوخ من قبيلته يحملون في قلوبهم ، ضعف العزيمة ، ويأس الشيوخ .. فقابلهم بقلبه الحي المتوقد ، الذي يرى ما لا يرون ، ويعرف ما لا يعرفون .

يعرف ان الحياة في الجهاد والاستشهاد ، وليست الحياة النائمة الضائعة الساكنة بشيء ، وإنما هي الموت البطيء ، أو التعفن والخسران .

وقد ظل المختار طوال سنوات الكفاح المريرة التالية على عهده ، ومتمسكاً بولائه للسنوسية ، ويعمل لما فيه الخير لمصلحة الجهاد والمجاهدين ببرقة ..

وكان المختار يعتقد اعتقاداً راسخاً ، أن هذا العمل ، إنما هو فرض يؤديه ، وواجب ديني لا مناص منه ولا محيد عنه ، وكان لنشأة المختار في أحضان دعوة السنوسية ، وتحت رعايتها أعظم الأثر في ذلك .

*

ولد السيد عمر من أبوين صالحين عام ١٨٦٢ م .. ووالده السيد مختار بن عمر من قبيلة المنفة .. وقد توفي الوالد في أثناء سيره إلى مكة المكرمة .. لأداء فريضة الحج وبصحبته زوجه الحجة عائشة والدة المختار .

فاوصى الوالد أحد رفاقه بولديه عمر ومحمد خيراً .. وكان

ولداه يقيمان وقتذاك بزنزور يدرسان بزاويتها .

وتلك أول بادرة جديرة بالالتفات في حياة الرجل .

فقد ذاق الرجل مرارة اليتم في صغره ، فكان هـذا هو أول الخير في قاب البطل ، ذلك أنه يتيم ، منكسر ، والقلب المنكسر يشعر بآلام الناس .

فاذا صادف مثل هذا القلب الإيمان ودخله حب الله وتغلغـل فيه ، تحول إلى قلب نوراني رحيم يلجأ إلى الله القوي المتـين في كل أمره ، ويحنو على الضعفاء والمساكين دائماً ..

ثم ما لبث عمر المختار أن ذهب إلى زاوية الجغبوب لإتمـام دراسته .. فمكث بها ثمانية أعوام ، وأظهر المختار من الصفـات الخلقية السامية ، ما حبب فيه شيوخ السنوسية وزعماءهـا ، فتمتع بعطفهم ، ونال ثقتهم ..

حتى أن السيد محمد المهدي السنوسي عند انتقاله من جغبوب إلى الكعرة ١٨٩٥ م اصطحب المختار معه .

وفي عام ١٨٩٧ عينه السيد المهدي شيخاً لزاوية القصور بالجبل الأخضر قريباً من المرج ، وكان يقطن بهذه الزاوية وحولها قبيلة العبيد ، وهم أناس عرفوا بشدة المراس وقوة الشكيمة ..

وقد اختاره السيد المهدي لهذه الزاوية حتى يسوس شئونهم باللين تارة وبالعنف تارة أخرى .

وحقق المختار ما عقده السيد المهدي على إدارته الحازمة من آمال .

وعلى ذلك ، فإنه عندما قرر السيد المهدي الانتقال إلى السودان الغربي ، في الظروف التي سبق ذكرها ..

كان المختار في طليعة من ذهبوا إلى قرو ، وذلك حتى يسهم بنصيب وافر في النضال ، الذي نشب وقتذاك بين السنوسية والفرنسيين في المناطق الجنوبية وحول واداي .

وأقام المختار في قرو مدة من الزمن ، ثم عينه السيد المهدي ، شيخاً لزاوية « عين كلك » .

فاستمر المختار بالسودان الغربي وقتاً طويلاً نائباً عن السيد المهدي .. ويقوم بتعليم أبناء المسلمين .. وينشر الاسلام في هذه الأصقاع النائية .

وهنا ينبغي أن نقف قليلاً ونفكر في أحوال الرجل ، فيتبين لنا انه كان داعية كبيراً ، يدعو إلى الإسلام وينشره بالفكرة والإقناع والإرشاد والتوجيه ، فهو أستاذ في هذا الفن كذلك ،

يعلم من أمور دينه الكثير ، فقه ودرس ..

ثم أخذ يعلم الناس كما علمه الله .

وأبت نفسه الكبيرة ، أن يكتم ما يعلم ، وانطلق يبشر برسالة الإسلام ، وينقل ما يستطيع من الناس من الضلالة إلى الهدى .. ومن الظلام إلى النور .

★

وبعد وفاة السيد المهدي (١٩٠٢ م) استدعي المختار إلى برقة ثم عين في العام التالي شيخاً لزاوية « القصور » مرة أخرى .. فبذل همه في حكم قبيلة العبيد ، وسياسة شئونها ، حتى سلس له قيادها ..

وشكرت له الحكومة العثمانية هذا النجاح ، واستتباب الأمور في القصور ، لأن العبيد كانوا من اكبر القبائل عناداً ، ويعجز العثمانيون عن إخضاعهم لسلطانهم ..

فظل الحكام العثمانيون في برقة يلجأون إلى المختار حتى يساعدهم في جمع أموال العشور والضرائب ..

وبقي المختار في زاوية القصور ، إلى أن نشبت الحرب الليبية

الايطالية .. فكان السيد عمر من اوائل أولئك الذين لبوا نـداء الجهاد وحملوا لواءه .

وتلك موهبة أخرى للبطل الشهيد .. فقد كان الرجل موهوباً بفطرته ، حبته الأقدار موهبة الحكم والفصل بين الناس ، والقدرة على الادارة الحـازمة .

قبيلة عاتية ، تحار فيها السلطات الرسمية ، يأتيهـا الرجل فتنقاد وتطيع وتمضي على نظام مكين .. وما ذلك إلا لأن روح الرجل ، روح قوية تؤثر سريعاً في كل من رآها او خـالطها أو عمل معها .

وقد ظلت هذه الصفة فيه إلى آخر لحظة من حياته .

★

وكان المختار وقت نزول الطليان في بنغازي ١٩١١ م ، بواحة جالو ، فخف إلى القصور مسرعاً ، وخرج بنجدة عظيمة من العبيد إلى مقر الجيش العثماني في الرجمة ، ثم اشتبك مع الطليان في معارك عدة فهاجمهم في بنغازي ..

ودأب على التنقل بين القصور وتكنس ، حتى احتل الطليان هذه الأماكن في سبتمبر ١٩١٣ .. فقاد المختـــار المجاهدين في

معسكرات جبل العبيد .. وعهد اليه السيد ادريس بمهمات عدة ، واتخذ من منطقة دفنا مجالاً لنشاطه الواسع بين القبائل .

وعندما اشترك السيد احمد الشريف في غزو الحدود المصرية الغربية ، ووقعت المصادمات بين العرب والانجليز ، اسهم المختار في هذه العمليات العسكرية .. ثم لازم المختار السيد إدريس لتلقي اوامره ..

وهكذا امر المختار نفسه ، واثبت انه القائد دائماً ، السباق الى الجهاد دائماً ، الراغب في الموت دائماً .

وفي يونيو ١٩٢٢ كان من اكبر الساعين في تاليف جبهة متحدة تضم البرقاويين والطرابلسيين من اجل النضال ضد ايطاليا .

وعندما قرر السيد ادريس مبارحة برقة ، عهد بقيادة المجاهدين العليا الى السيد عمر المختار ..

فجعل المختار مقره في الجبل الأخضر من ذلك الحين الى وقت استشهاده بعد عشرة اعوام تقريباً .

معارك المختار

عاد المختار من مصر عن طريق السلوم الى برقـــة، مزوداً بتعليمات الأمير لمواصلة الجهاد ..

وكانت الخطة المتفق عليها هي انشاء المعسكرات واختيـــار الرؤساء الصالحين لها ، ومهمة السيد المختار هي رئاسة هـــذه العمليات كلها .

اما مهمة الأمير ، فهي البقاء في مصر لإمداد المجاهدين بكل مساعدة ممكنـة ..

ولم تكن رحلة المختار من السلوم الى برقة خـــالية من كل حادث ، ذلك بان جواسيس الطليان سرعان ما طيروا الخبر الى رؤسائهم ، ان المختار قد اجتاز الحدود الشرقية ..

فأعد الطليان ثلاث سيارات مصفحة كمنت للسيد عمر وصحبه

وكان غرضهم القبض على المختار واسره .. فما ان ظهر المختار ورفاقه حتى امطرهم العدو وابلاً من رصاص مدافعهم الرشاشة ، ولكن المختار صمد لهم ، واهتم المجاهدون باصابة عجلات السيارات فكان لهم ما أرادوا .

وعندئذ انقضوا على القوة الايطالية بهذه السيارات فأبادوا أفرادها عن آخرهم .. وكانت هذه الهزيمة الساحقة كافية لأن تلقي الرعب في قلوب الطليان ، فاستطاع السيد عمر وصحبه أن يتابعوا سيرهم بعد ذلك « على مرأى ومسمع من الايطاليين ، الذين لم يجرءوا على من تعقبهم مرة اخرى حتى بلغوا الجبل الأخضر » .

★

بدأ النضال في عامي ١٩٢٤ ، ١٩٢٥ بوقوع معارك ومناوشات عدة ، ووسع المجاهدون دائرة نشاطهم العسكري في الجبل الأخضر حتى خف ضغط الطليان على إخوانهم في معسكرات البرقتين .

ولمع إسم السيد عمر وسطع نجمه كقائد بارع يتقن أساليب الكر والفر ويستمتع بنفوذ عظيم ، وأخذ العرب من اهل القبائل القاطنة في الجبل ينضمون إلى صفوف المحاربين .

وفضلاً عن ذلك ، فقد بادر الأهلون من غير المحاربين بامداد

إخوانهم بما يحتاجونه من مؤن وعتاد واسلحة .

ولم يكن في استطاعة الطليان في هذه المرحلة من الجهاد أن يقوموا بنشاط حربي ملحوظ في منطقة الجبل الأخضر ، فقصروا جهودهم على تدبير احتلال ذلك المركز السنوسي العتيد في الجنوب والذي ظل طوال الاعوام الماضية ، يمد المجاهدين بالمؤن والذخائر ، ونعني به واحة الجغبوب ، التي كانت تمد المجاهدين بما يحتاجونه من نجدات ومؤن .

وأعد الايطاليون حملة عسكرية كبيرة تتألف من الفين من الجنود ، وفصائل من السيارات المصفحة المسلحة بالمدافع الرشاشة ، بلغ عددها ثمانين .. وهذا عدا ست سيارات مصفحة ، وثلاثمائة وخمسين سيارة اخرى لنقل المؤن والمهمات ، وانطلقت اثنتا عشر طائرة لمعاونة الحملة .

إلا ان ذلك كله ، كان إعداداً لا داعي له ، لان اهل الواحة كانوا قد رحلوا عنها ..

وعلى ذلك ، دخل الطليان الجغبوب دون مقاومة فاحتلوها في ٨ فبراير ١٩٢٦ .

وبعد سقوط جغبوب مصيبة جديدة تضاف الى المتاعب التي استقبلت عمر المختار ، عندما حمل على عاتقه العبء كاملاً .

ولجأ الطليان إلى محاولة بذر بذور الشقاق بين المجاهدين حتى يضعفوا من قوتهم فلم يفلحوا ..

ثم حاولوا استمالة السيد عمر المختار نفسه، وعرضوا عليه عروضاً سخية .. وحاولوا ان يكافئوه بمبالغ من المال طائلة .. او ان يمنوه بالجاه العريض .. في ظل حياة رغدة ناعمة .. ولكنهم لم يفلحوا .

وذاك الجانب من حياة المختار جدير بالملاحظة ، ذلك أن الرجل كان صاحب فكرة ومبدأ .. لا يفرط في فكرته ولو عرضت عليه الدنيا باكملها ثمناً لذلك التفريط .

ولكن الطليان ، وهم قوم لا اخلاق لهم .. ولا معنى للشرف والكرامة عندهم .. خيل اليهم انهم يستطيعون شراء الرجل بالذهب والمركز الممتاز ، وساء ما يظنون ، وبئس ما يعرضون .

●

وكان المختار يتخذ مقر قيادته في منطقة شحات ، ويبلغ عدد المجاهدين حوالي خمسمائة والف منهم اربعمائة فارس تقريباً .

وعلاوة على ذلك ، فقد اتخذ المختار التدابير التي تمنع عرقلة حركات المجاهدين ..

فابعد الاسر بمواشيها من منطقة القتال ، وزود جنوده بعدد عظيم من (القرب) المعدة لامداد المجاهدين بالمـــاء ، واخذ هؤلاء يتاهبون للالتحام مع الطليان في معارك فاصلة .

وسرعان ما اشتبك المجاهدون مع الطليان في معارك دامية في يوليو ١٩٢٧ ..

ثم استمرت مناوشاتهم للعدو حتى بداية الشهر التالي ، وأصيب الطليان بخسارة فادحـة ..

وبعد كر وفر تغلب الطليان في النهاية بما كان لهم من قوات كبيرة تشد أزرها الطيارات والسيارات المصفحة ، فـاستطاعوا أن يضيقوا نطاق الحصار على المجاهدين .

•

وأعد الطليان خطتهم للاستيلاء على فزان واحتلال عاصمتها ، فخرجت في أواخر يناير ١٩٢٨ قوتان .. إحداهما من غدامس ، والأخرى ... من الجبل الأخضر ... وكان الجيش بقيـــادة جرازياني .

والتحم المجاهدون معه في معركة دامية استمرت خمسة ايام

بتمامها ، انهزم فيها الطليان شر هزيمة فتقهقروا تاركين ما لديهم من مؤن وذخائر ..

ثم ما لبثت أن خرجت قوة أخرى تقصد فزان مبـــاشرة ، فعلم المجاهدون بأمرها بعد خروجها بثلاثـــة أيام وانسحبوا إلى الداخل ، حتى إذا وصل هذا الجيش الجديد إلى مكان يقع بـــين جبلين يعرفان بالجبال السود ، انقض المجـاهدون على الطليان وأرغموهم على التقهقر .

فعمد قواد الحمـلة إلى الفرار بسياراتهم .. تاركـين وراءهم الجيش ، الذي وقع أكثره في قبضة المجاهدين ، فاستأصلوهم عن آخرهم ..

وعندئذ لم يجد الطليان مناصاً من أن يجددوا محـاولاتهم ، فخرجت في هذه المرة قوات عظيمة من جهات متعددة ..

غير ان الطليان ، ما لبثوا أن انهزموا في هذه المعارك وتركوا وراءهم غنائم وأسلاباً كثـيرة .

إلا ان الطليان ، بعد ذلك ، استطاعوا ـ بفضل احتـــلال الجغبوب عام ١٩٢٧ وغيرهـــا ـ ان يقطعوا كل السبل بين المجاهدين في الجبل الأخضر وبرقة ، وبين مصر ، من النـــاحية

الشرقيه ، وبين مراكز السنوسية الباقية في الجنوب ، في فزان والكفـرة ..

ووضعوا السيد عمر المختار والمجاهدين في عزلة تامـــة في الشمال ..

فهل وهن الرجل وضعف ؛ ووجد اليأس إلى قلبـه سبيلاً ، بعد ذلك كله ؟

كلا .. بل إن الأحداث لم تنل شيئاً منه ، وابتسم ابتسامـة الواثق بربه ، المؤمن برسالته ، وقرر الجهاد مهما كانت الظروف والنتائج .

وفي خلال هذه الظروف السوداء القاتمة ، ظل يشن الغــارة بعد الغارة على درنة وما حولها ، حتى ارغم الطليان على الخروج بجيوشهم في ٢٢ أبريل لمقابلتـه ..

فاشتبك معهم في معركة شديدة استمرت يومين كان النصر فيها النصر حليفه ، ففر الطليان تاركين عدداً من السيارات والمدافـع الجبلية وصناديق الذخيرة ، عدا الجمال ودواب النقل .

الله اكبر !.

ذلك هو عمر المختار على حقيقتــه .. زأر كالأسد ، وانقض

كالصاروخ ، فبدد بجفنة من الرجال ، جيوش الأمبراطورية الايطالية ، وجعلها تفر هاربة تاركة عتادها ومؤنها .

ولو لم يكن الرجل من معدن نفيس غاية النفاسة ، ما كان بهذه القوة المدمرة .

كان كل ما حوله ينذره بالهزيمة ، ويقيم الدليل على أن المعركة غير متكافئة ، وان النتيجة هي استيلاء إيطاليا في النهاية على ليبيا باكملها .. فما جدوى القتال والنضال ؟

كان هذا هو منطق الحوادث .. وهو منطق العقول والأوهام دائماً .

ولكنه ليس بمنطق الأبطال ، الراغبين في الشهادة .

الذين يقاتلون مهما كانت النتائج ، لأنهم يؤمنون بشيء واحد هو أن يموتوا شهداء .

وذلك هو مصدر القوة العجيبة ، التي تنفجر من قلوب الشهداء ..

●

وفي يونيو .. استطاعت قافلة أن تخرج من السلوم محملة بمختلف العتاد والمؤن قاصدة إلى الجبل الأخضر لامداد السيد عمر ..

فعلم الطليان بخروجها ، وأرسلوا سياراتهم المسلحة لتعقبها ، ولكن المجاهدين صمدوا لهم ، وأطلقوا رصاص بنادقهم على العجلات فتعطلت السيارات ، وعندئذ انقض العرب على القوة الايطالية ، فابادوها عن آخرها واحرقوا السيارات .

•

وفي سبتمبر من العام نفسه ، غزت جموع الزاوية الجخرة ومرسى بريقة وجالو وأوجلة ، وأنزلوا بالطليان خسائر جسيمة .

فدلت هذه الأعمال على أن « الثورة » ما زالت مستعرة الأوار في الجهة الغربية من سرت شمالاً . إلى الفزان جنوباً ، والى جالو شرقاً .. فضلاً عن اشتداد مقاومة المجاهدين ، في الجبل الاخضر ..

وذلك كله ، على الرغم من احتلال الطليان للواحات كمراكز السنوسية الهامة ..

فلم يعد هناك مناص من أن يعيد الطليان النظر في خططهم، مما ادى إلى وقوع ازمة كبيرة في روما .

واعلن موسوليني توحيد الادارة في القطرين الليبيين ، وعين الماريشال بادوليو حاكماً على طرابلس وبرقة .

ويحدد مجيء بادوليو إلى ليبيا بداية مرحلة النضال الحاسمة بين الطليان والمجاهدين في برقة والجبل الاخضر .

تعيين بادوليو

حاكماً عاماً على ليبيا

حضر بادوليو الى ليبيا حاكماً عاماً عليها في يناير ١٩٢٩ .

وكان برنامجه الجديد يتلخص في تخفيض الجيش الى القدر الذي يكفي القيام (بحرب العصابات) والمحافظة على هيبـة الحكومة ليس الا .. مع انفاق الاموال المتوفرة في مد الطرق في الجبل الاخضر مما يسهل عليه التنقلات العسكرية .

فاذا ما تم له ذلك قام بهجوم شامل كاسح على المجاهدين يقضي على المقاومة نهائيـاً .

من اجل ذلك سعت السلطات الايطالية الى مفاوضة السيـد عمر المختار لتهدئة الاحوال .. ووافق السيد على ذلك ، بعـــد شروط اشترطهـا .

وفي ٢٠ ابريل ، دارت المفاوضات بينها وبين السيد ..

ثم خير مندوبو الحكومة السيد عمر بين امور ثلاثة : الذهاب الى الحجاز ، او الى مصر ، او البقاء في برقة ..

فإذا رضي البقاء في برقة أجرت عليه الحكومة مرتباً ضخماً وعاملته بكل احترام .

ولكن المختار رفض هذه العروض .

وتلك فتنة اخرى يسوقها القدر الى المختار .. منصب هام ، واموال طائلة ، وحياة هادئة .

ولكن الرجل رفض كل هذا ، لانه - كما قدمنا - ليس من الطراز الطامع في الدنيا المتهالك على اعراضها .

ثم تعطلت المفاوضات بعد ذلك .

●

واستؤنفت المفاوضات ثانية ، وكانت السلطات الايطالية ، قد بيتت النية على الايقاع بالمختار وأسره ..

ولكن السيد عمر احتاط للأمر .. ولم يسفر هذا الاجتماع

عن شيء ..

ثم استؤنفت مرة ثالثة ورابعة ، وتم الاتفاق بين الطليان والسيد عمر المختار ، على عقد هدنة لمدة شهرين حتى يتسنى لكل منهما « مخابرة مرجعه » ..

وقال بادوليو انه على استعداد تام لقبول عودة امير البلاد ، السيد محمد ادريس الى برقة ، ما دام المختار والمجاهدون يصرون على ذلك .

ومعنى ذلك ، ان الطليان قد اعترفوا بالهزيمة السياسية واقروها وان تلك الجهود العسكرية التي بذلوها مدة ستة اعوام تقريباً قد ذهبت جميعها هباء منثوراً .

والواقع ان ذلك كان مجرد مراوغة من ايطاليا لكسب الوقت ، وكانت نية الدولة الفاجرة الحقيقية ، هي المماطلة حتى يأتي الوقت الذي تستطيع فيه ان تشن هجوماً نهائياً يقضي على مقاومة المجاهدين الى الابد .

•

وأمهل المختار والي برقة وطرابلس حتى يوم ٢٤ اكتوبر

١٩٢٩ كي يتدبر الامر بحكمته .

وانتظر المختار دون جدوى ، ان ياتيه رد من الحكومة في الايام التالية .

وعندئذ تأكد لدى المختار ، ان الطليان مصممون على القتال ، وبادر باصدار ندائه المشهور ، إلى أبناء وطنه وسكان برقـــة وطرابلس في ٢٠ اكتوبر ١٩٢٩ .

وفي هذا النداء أخذ المختار يسرد قصة المفاوضات الصحيحة من جهة .. ثم يبين المجاهدين مقدار تمسك الطليـــان بعهودهم ، وكيف انهم نقضوا الهدنة التي طلبوهـــا بانفسهم ، فصاروا يتحملون وحدهم ، بهذا العمل ، مسؤولية استئناف الحرب في ليبيـــا .

وقد أراد المختار ، من نشر هـــذا النداء ، ان يصحح من جهة اخرى ، تلك الوقائع التي صار يذيعها الطليان على غـــير حقيقتها ممسوخة مشوهة عن المفاوضات والهدنة ..

وأن يطلب إلى ابنـــاء الوطن أن يمضوا في الكفاح عن كيانهم :

« باذلين دمـــاءهم الزكية فداء الوطن في سبيل الوصول إلى

غايتهم المنشودة ».

وخاطب السيد عمر المجاهدين وابناء الوطن قائلاً :

« ليعلم إذاً كل مجاهد ، أن غرض الحكومة الايطالية إنما بث الفتن والدسائس بيننا ، لتمزيق شملنا وتفكيك اواصر اتحادنا ، ليتم لهم الغلبة علينا ، واغتصاب كل حق مشروع لنا ، كما حدث كثيراً من هذا خلال الهدنة ، ولكن بحمد الله لم توفق إلى شيء من ذلك ...

« وليشهد العالم أجمع ان نوايانا نحو الحكومة الايطالية شريفة ، وما مقاصدنا إلا المطالبة بالحرية ، وإن مقاصد إيطاليا واغراضها ترمي إلى القضاء على كل حركة قومية تدعو إلى نهوض الشعب الطرابلسي وتقدمه ... فهيهات ان يصل الطليان إلى غرضهم ما دامت لنا قلوب تعرف ان في سبيل الحرية ، يجب بذل كل مرتخص وغال ».

ثم ختم المختار هذا النداء بقوله :

« لهذا نحن غير مسئولين عن بقاء هذه الحالة الحاضرة على ما هي عليه ، حتى يثوب اولئك الأفراد النزاعون إلى القضاء علينا إلى رشدهم ويسلكوا السبيل القويم ، ويستعملوا معنا الصراحة بعد المداهنة والخداع ».

وقـــد نشرت بعض الصحف المصرية ، هـذا النداء ، في ٢ يناير ١٩٢٩ .

وكان المختار محقاً في توقعه الغدر من جانب الطليان ، فما لبثت الطائرات الايطالية ، ان القت قذائفها في ١٦ ينـــاير على المجاهدين والسيد عمر .

وبدأ النضال من جديد ، بـين المجاهدين ، وبين الحكومة الايطـالية ..

جرازياني

جرار ليبيـــا

جاء جرازياني إلى برقة ، حاكماً عليها ، ونائباً للمارشال بادوليو الحاكم العام لكل من برقة وطرابلس .

جاء مكلفاً بتعليمات صريحة من قبل حكومـــة الدوتشي الفاشستية ، بضرورة القضاء قضاء تاماً على المقاومة في برقة ..

وذلك بأن يعد اعظم قوات في استطاعته استخدامهـا بصورة سريعة وصارمة .. للقضاء على المعسكرات ، واستثارة المجـاهدين إلى الاشتباك مع الطليان ، في معارك فاصلة ... واخيراً احتلال الكفرة .

فكان مزوداً بتعليمات بضرورة الفصل بين جميع الأهلـــين الذين خضعوا للحكومة واظهروا ولاءهم لهـــا عن « الثوار »

والمجاهدين العرب ، واتخاذ كل الوسائل التي تضمن عدم تسرب نفوذ السنوسية بين الأهالي الموالين للطليان ، وقيام الحكومة بعملية « تطهير » واسعة بين الوطنيين والطليان المقيمين في المدن وخصوصاً في بنغازي .

إلى جانب قفل الحدود المصرية قفلاً تاماً لمنع وصول الأسلحة والتموين الى المجاهدين .

ومنذ عودة جرازياني إلى بنغازي ، بدأ نائب الوالي الجديد يضع هذا البرنامج موضع التنفيذ من غير إبطاء ، معلناً أنه سوف ..

« يتبع بكل اخلاص ، تعاليم الدولة الفاشستية ويسير على مبادئها ، لأنه وان كان قائداً من قواد الجيش واحد الرجال العسكريين ، ألا انه يدين بمبادىء فاشستية محضة ، ويعلن هذه الحقيقة بكل وضوح وصراحة تامة » .

●

ولم يمض على وصول جرازياني سوى ايام قلائل ، حتى أنشأ ، ما صار يعرف في تاريخ الاستعمار الايطالي الأسود باسم المحكمة الطائرة (ابريل ١٩٣٠) .

وذلك بسبب انتقال هذه المحكمة على متن الطائرات من مكان الى آخر لاصدار الاحكام السريعة ، ثم تنفيذ هـــذه الاحكام على أيدي السلطات المحلية في التو والساعة ..

« حتى يشعر الأهلون بأن العدالة تأخذ مجراها بكل سرعة » .

وفي نفس الوقت بدأ ينفذ سياسة عزل الأهالي الخــــاضعين للحكومة عن المجـــاهدين ، فحشدهم في تلك (المعتقلات) التي امتدت من العقيلة الى السلوم .

ثم أخذ يعمـــــل على حل زوايا السنوسيين ومصادرة أملاك الزوايا وأوقافها ، الى غير ذلك من ضروب النشاط الذي قام بـه (جزار ليبيا) ، تنفيذاً للشطر الأول من التعليمات المعطاة له ، حتى يضيق الحصار على المجاهدين في الجبل الأخضر والمنـاطق الأخرى ..

وكانت معسكرات المجاهدين عند حضور جرازياني حـــاكماً على برقة موزعة في أماكن قريبة من نواجع الأهالي حتى يسهل على المختار وصحبه ، اخذ العشور ، والحصول على الذخــــائر والاسلحة والمؤن .

وفي ١١ ابريل ١٩٣٠ بدأ المجاهدون هجومهم الجديد بالانقضاض على قوة ايطالية ..

ولكن مجيء النجدات السريعة للطليان ، واضطرار المجاهدين الى الانسحاب ، ما لبث أن جعل المختار يغير شيئاً من أساليبه ويركن الى مفاجأة القوات التي كان يرسلهـــا الطليان للكشف والاستطلاع في أماكن متفرقـة ..

او تلك التي كانت تقوم بحراسة العمال المكلفـين انشاء الطرق تمهيداً لقيام الطليان بالعمليات العسكرية الكبيرة في الجبـــل الاخضر .

وابلى المجاهدون في المناوشات التـــالية بلاء حسناً واشاعوا تهكماً بالطليـــان ، وزراية بهم .

تارة ان المختـــار ، قد اصيب بجروح في مناوشة من هذه المناوشات ، وتارة اخرى انه اصيب بمرض طـــارىء افضى الى استشهاده ، وذلك كله لاقامة البرهان ، على ان المقاومة مـا زالت سائرة في طريقها الجدي على الرغم من عدم اشراف قائد المجاهدين الاعلى على عمليات الجهاد بنفسه .

•

وأحكم جرازياني تدابيره العسكرية .. فلم يات يوم ١٤ يونيو حتى كان الطليان قد استولوا على منطقـة الفايدية باجمعهـــا ،

واحتلوها ونزعوا من الاهالي الخاضعين لهم ٣١٧٥ بندقية و ٦٠٠٠٠ خرطـوشة .

واضطر المختار ، نتيجة لذلك ، الى نقل دائرة عمليـاتـه الى الناحية الشرقية (في الدفنا) نظراً لقربها من الحـدود المصرية ، وذلك حتى يتمكن من إرسال المواشي التي ياتيه بهـا الأهالي إلى الأسواق المصرية في نظير أخذ حاجته من هذه الأسواق .. ممـا جعل جرازياني يقرر إقامة الأسلاك الشائكة ، على طول الحـدود الشرقية ..

فهل ضعف المختار بعد ذلك كله واستسلم ، بعـد أن وضح للعيان ان المعركة ميئوس منها .. وان الطليان لهم السيطرة التامة على البلاد ؟

كلا .. بل اليك طـائفة من معارك المختار ، بعد كل ما رأيت ..

هاجم المجاهدون مراكز الطليـان في منطقة عين الغزالة واستولوا على عدد عظيم من الجمال ..

ثم انضم اليهم كثير من الأهالي ..

فاضطر جرازياني إلى جمع النواجع المنتشرة في هذه المنطقة في

أماكن أحاطها بالأسلاك الشائكة .

ثم جلب من طرابلس شراذم غير نظامية ، سرعان ما اشتبكت مع المجاهدين في معارك لم تكن فاصلة .

وفي شهر أغسطس .. التحم الطليان مع المجاهدين في مناوشات عــدة .

وفي ١٩ سبتمبر نقل جرازياني بالسيـارات قوات أخرى غير غير نظـــامية من قبيلة الجاسة إلى ناحية القبة .. ولكن دون الوصول إلى نتيجة ..

فأعاد العدو الكرة على المعسكرات وحاصر المجــاهدين في وادي سافيه ، واشتبك معهم في معركة كرسة المشهورة في يوم ٢٠ سبتمبر ١٩٣٠ ، وهي المعركة التي استشهد فيها خير قواد المختار السيد الفضيل بو عمر ..

وكان الفضيل مجاهداً قديماً اشترك في الحرب الليبية الايطالية (١٩١١) وعرف بالشجاعة والاخلاص .

وقد ذكر المختار تفاصيل هذه المعركة في كتاب له جاء فيــه أن العدو هاجم المعسكر ، وكان رئيسه السيد الفضيــل بو عمر ، وقد استشهد في هذه المعركة .. إلى جــانب الفضيل .. أربعون شهيداً ..

وقد وجدنا في ميدان القتال ما يزيد عن ٥٠٠ قتيل من العدو وبينهم ماجور وثلاثة ضباط .

على أن الطليان لم يلبثوا أن شددوا عملياتهم العسكرية في منطقة الجبل الأخضر بعد هذه الواقعة ..

فاستمرت جموعهم تناوش المجاهدين مدة اسبوعين ، ولكن دون الوصول إلى نتيجة .

وفي اكتوبر ١٩٣٠ تمكن الطليان من الاشتباك مع المجاهدين في معركة كبيرة ، عثر الطليان عقب انتهائها على (نظارات) السيد عمر المختار ..

كما عثروا على جواده المعروف مجندلاً في ميدان المعركة ، فثبت لديهم أن المختار ما زال على قيد الحياة .

وأصدر جرازياني منشوراً ضمنه هذا الحادث حاول فيه أن يقضي على « اسطورة المختار الذي لا يقهر أبداً » .

وقال متوعداً : « لقد أخذنا اليوم (نظارات) المختار ، وغداً نأتي برأسه » .

وبعد الاستعدادات العظيمة ، بدأ زحف الطليان لاحتـــلال «الكفرة» .

وعرف الطليان ، وهم في طريقهم اليها بتجمع قوات المجاهدين في واحة الهواري ، فبادروا بالاشتباك معهم في معركة دامت ثلاث ساعات واستخدمت فيها الطائرات .

وقاتل المجاهدون جميعاً بشجاعة وبسالة نادرة ، فلم يكفوا عن القتال إلا عند شعورهم بأنهم سوف يفنون عن آخرهم ، فبلغ من استشهد من المجاهدين في واقعة الهواري حوالي المائة ..

ووقع في أسر الطليان ثلاثة عشر فقط ، وغنم الطليان مائة بندقية وبعض الذخائر واحتلوا الكفرة...

ولا يستطيع أحد أن يطالب هؤلاء الأبطـــال بالاستمرار في القتال ، بعد أن استشهدوا جميعاً إلا ثلاثـة عشر .. كان مصيرهم الفناء التام .

وفي ٢٤ يناير ١٩٣١ وصل إلى الكفرة بطريق الجو الماريشال بادوليو ، ورفع الطليان علمهم على زاوية التـاج ، ثم ظفقت قواتهم تطارد قوات المجاهدين .

ورجع الطليان من هذه المطاردة بخمسين أسيراً قتـلوا منهم

حالاً اثني عشر رجلاً .

وبسقوط الكفرة انتهت في الحقيقة كل مقــاومة جـدية ضد الطليان في برقــة ..

كما كان سقوط فزان في العام السابق قد قضى على المقــاومة في طرابلس .

أسر عمر المختـــار

كان لسقوط الكفرة ، أعظم الأثر في موقف السيد عمر المختار في الجبل الأخضر ..

ذلك أن جرازياني استطـــاع بذلك إغلاق الحدود المصرية إغلاقاً تاماً ، بمد الأسلاك الشائكة على طول هذه الحـدود حتى الجغبوب .

وأنشأ المراكز المسلحة على طول هذه الحدود ، فـانقطع تماماً مجيء أية إمدادات إلى السيد عمر المختار في الجبل الأخضر .

ومع ذلك ، فقد ظل المختار في الجبل يقـاوم الطليـان ، على الرغم من هذه الصعوبات الجسيمة التي كانت تكتنفه من كل جانب . واستمر الحال على ذلك حتى حدث في يوم ١١ سبتمـبر ١٩٣١ ، أن وصل إلى الحكومة برقية تنبىء بأن مصادمات وقعت بـين المجاهدين وقوة من خيالة الحكومة بالقرب من سلطنة ، « وأن

رجلاً من الأهلين وقع في أسرهم وقد عرفه الجند وقالوا إنــــه عمر المختار نفسه » .

وكان لهذه البرقية أثر بالغ في دوائر الحكومة ، فغادر مندوبها في التو والساعة بطريق الجو إلى مكان الحادث ، حتى يقف بنفسه على الحقيقة .

فسهل عليه التعرف على السيد عمر ، كما أعلن المختـــار عن شخصه ..

فـارسله المندوب بحراسة قوية إلى مرسى سوسة ، ثم نقلتـه مركب حربية إلى بنغازي .

وقد فصل أحد الكتاب ما وقع للسيد عمر فقـال :

إن المختار « كان قد جرى على عـادة الانتقـال في كل سنة من مركز إقامته إلى المراكز الأخرى التي يقيم فيهـا إخوانه المجاهدين لتفقد أحوالهم .

وكان إذا ذهب لهذا الغرض يستعد للطوارىء ويأخـذ معـه قوة كافية تحرسه من العدو الذي يتربص به الدوائر في كل زمـان ومكان ..

ولما اراد الله أن يختم له بالشهادة ، ذهب في هذه السنة كعادته

في نفر قليل يقدر بمائة فارس .. ولكنه عاد فرد من هذا العدد ستين فارساً ، وذهب في أربعين فقط .

ويوجد في الجبل الأخضر ، واد عظيم معترض بين المجاهدين اسمه وادي الجريب ، وهو صعب المسالك كثير الغابات ، كان لا بد من اجتيازه ..

فمر السيد عمر المختار ومن معه ، وباتوا فيه ليلتين ، وعلمت بهذا إيطاليا ، بواسطة جواسيسها المنتشرين في كل مكان ، فأمرت بتطويق الوادي على عجل من جميع الجهات ، بعد أن جمعت كل ما عندها من قوة قريبة وبعيدة ..

فما شعر السيد عمر المختار ومن معه ، إلا وهم وسط العدو ، ورأى انه لا خلاص له من هذا المازق إلا بالهجوم .

فامر من معه بالهجوم على من يقربهم من العدو في الجهة القبلية ، ودامت المعركة بينهما يومين كاملين .

وعلى الرغم من الاحتياطات الشديدة التي اتخذها العدو ، وعلى الرغم من كثرة عدده وعدته ، تمكن السيد عمر المختار ، ومن بقي معه ، من خرق صفوف العدو ، إلى ان خرجوا من ذلك الوادي ووصلوا إلى غربي سلطنة

ففاجاتهم قوة طليانية أخرى ، غير القوة التي حاصرتهم في

لإرادة المولى عز وجل ، وأنـــه وقد اصبح الآن أسيراً بايدي الحكومة ، فالله سبحانه وتعالى وحده يتولى أمره ، وأمـا أنتم ، فلكم الآن وقد أخذتموني أن تفعلوا بي ما تشاءون ، وليكن معلوماً اني ما كنت في يوم من الأيام لأسلم لكم طوعاً ! ».

وكان جرازياني وقت القبض على المختار يقضي إجـــازته في روما ، فوصله الخبر مساء يوم ١٢ سبتمبر ١٩٣١ ، وهو بالقطـار الذاهب به إلى باريس ، فلم يتابع رحلته ، بل استقل طـــائرة أوصلته إلى طرابلس في يوم ١٣ سبتمبر ١٩٣١ .

ووصل إلى بنغازي في اليوم التالي ، ودعا في التو واللحظـــة « المحكمة الخاصة او المحكمة الطيارة » إلى الانعقـــاد ، في يوم ١٥ سبتمبر .

عمر المختـــار

امـــام جرازياني

أرادت الأقدار أن يقف البطل ، الذي حير إيطاليــــا ، وأشاع الرعب في قلوب جيوشها ، أمـــام الرجل التافه الحقير المدعو جرازياني .

وجرازياني هذا ، صعلوك من صعاليك الطليـــان ، حقير النفسية ، وضيع الأخلاق ، من أولئـــك الذين يرتفعون في كل عهد ، ويأكلون على كل مائدة .

كان من قادة الجيش الإيطالي ، فلما جــاء موسوليني ذلك الطبل الأجوف ، وادعى الزعـــامة على إيطاليا ، وحشر نفسه حشراً في صفوف الزعامات العالمية ، كان جرازياني هذا أول من صفق وقرع الطبول للزعامة الجديدة ، وصار فاشستيـاً اكثر من

الفاشيست أنفسهم .

أمام هذا الرجل التافه ، وقف البطل الأشم عمر المختار .

وتستطيع أن تفكر في هذا الموقف وتطيل التفكير ، فإن النفوس الحقيرة الوضيعة ، لا تعرف الشرف ، ولا الرجولة ، ولا الكرامة ، ولا الأخلاق إذا خاصمت .

فما يكاد عدوها يقع في يدها حتى تفعل به الأفاعيل ، وتصب عليه أصنافاً وألواناً من العذاب !! يدفعها إلى ذلك ، شدة إحساسها بحقارتها وعظمة عدوها ، وشدة شعورها بنقصها وكمال اسيرها .

من أجل ذلك دفعت الشماتة هذا الرجل الحقير أن يقطع رحلته إلى باريس ، وأن يعود فوراً إلى بنغازي ، وأن يدعو المحكمة الطائرة إلى الانعقاد .

ودفعت غريزة الشماتة جرازياني أن يستدعي البطل في صبيحة اليوم نفسه ، وقبل المحاكمة بقليل .

وجيء بالمختار إلى سراي الحكومة ، وأدخل على جرازياني في مكتبه .

كيف جاءوا به ؟

جاءوا به مقيد اليدين بالسلاسل والأصفاد ..

جاءوا به ، وهو يسير بصعوبة ... وقد غطى وجهه بحرامه .

وبدا المختار حينئذ ولياً من أولياء الله ، لم ينل الأسر والسجن شيئاً من وقاره وجلال هيبته .

وحين يساق المؤمنون إلى المحاكات الوهمية التي يلفقها لهم المستعمرون والجبابرة ، تحف الملائكة جباههم ، وترفرف الرحمة السماوية على رؤوسهم ... وينزل الله سبحانه السكينة في قلوبهم .

وهذا سر الجلال الذي كان يحف بالمختار ، ولم يكن جرازياني ليدرك شيئاً من ذلك كله .

ودار الحوار بين الأسد المسلسل ظلماً وطغياناً ، وبين الفأر الجبان المدعو جرازياني ، وإن لبس ملابس الأسود .

وكان يقوم ترجمان حرازياني الخاص بالترجمة .

جرازياني ـ (مخاطباً السيد عمر) لماذا حاربت الحكومة الايطالية هذه الحرب الشديدة ؟

المختار ـ لأن ديني يأمرني بذلك .

جرازياني ـ هل كان لديك أي امـل في أنك سوف تستطيـع إخراجنا من برقة بهذا العدد القليل من الرجال الذين ينـــاضلون معك ، وتلك المعدات الضئيلة التي تملكها ؟

المختار ـ كلا ، فإن هذا على ما يبدو كان أمراً مستحيلاً .

جرازياني ـ ماذا كان غرضك إذن وماذا كنت تبغي ؟.

المختار ـ كنت مجاهداً وكفى ... اما ما ينجم من هـــذا الجهاد فالأمر فيه موكول لله وحده .

جرازياني ـ ولكني أعلم أن كتابك (أي القرآن الكريم) ، يفرض عليك الجهاد ضد الكفار ، إذا كان هنـاك أي أمـل في النجـاح والنصر فقط ، حتى لا يضر الأهـلون ، أو يلحق بهم الاذى ، هل يقول (القرآن الكريم) ذلك حقاً ؟

المختار ـ نعم .

جرازياني ـ لماذا إذن حاربت ؟

المختار ـ لان ديني يامرني بذلك .

جرازياني ـ كلا ، بل الصحيح ، هو أنك لم تحـــارب إلا من اجل السنوسية فحسب وهذا شيء آخر ..

(وهنا انطلق جرازياني يندد بالسنوسيه والدوافع التي جعلت المختار يتابع الجهاد ضد الطليان ، فلم يجبه المختـــار بشيء ... ولكنه ـ على حد قول جرازياني ـ كان يظهر في أثنـاء ذلك ، ألماً شديداً) .

جرازياني ـ لماذا نقضت انفـــاق السلام وأمرت بالهجوم على جرس بنقدن ؟

المختار ـ لاني ظللت شهراً بطوله انتظر رداً على خطابي إلى بادوليو ، ولم يجب بادوليو بشيء .

جرازياني ـ هذا كلام من يريد الاعتذار عن عمل طائش أتاه ولا يصح ان يصدر من رجل مثلك ... والواقع انك نقضت السلم متعمداً ، واليك الدليل على ذلك .

(ثم يستمر جرازياني فيقول :

« وقـــد قرأت عليه المنشور الذي امضاه ونشرتـه الصحف المصرية ـ ويقصد جرازياني نداء المختار الذائع ، في ٢٠ اكتوبر ١٩٢٩ . »

أما المختار فلم يجب بشيء) .

جرازياني ـ هل أمرت فعلاً .. بقتل الطيارين أوبر وبياتي ؟

المختار ـ نعم ، فإن الرئيس وحده هو الذي يتحمل جميع المسئوليات والحرب هي الحرب .

جرازياني ـ هذا يكون إذا كان هناك حرب فعلاً وليست أعمال لصوصية إجرامية مثل اعمالكم .

المختار ـ هذه مسالة رأي .

جرازياني ـ لقد اضعت بعملك في « جرس بنقدن » كل حق في طلب الرحمة من الحكومة .

المختار ـ مكتوب !. ولكني أريد أن أقول إنني عندما وقعت في الأسر ، لم يكن معي سوى ست خرطوشات فقط ، وربما كان لذلك في امكاني ان اقتل الجندي الذي اسرني ، او أقتل انا .

جرازياني ـ ولماذا لم تفعل هذا ؟

المختار ـ لأن ذلك كان من قضاء الله وقدره ، إني رجل كبير السن فدعني أجلس .

(وعندئذ يقول جرازياني إن المختار جلس امام مكتبه وكشف قليلاً عن وجهه ..

(وكان يبدو عليه الهدوء بعد تأثره الأول .

(وكان جالساً بصورة تمكن جرازياني من رؤية نصفه الجانبي ، ويسترسل جرازياني فيقول :

« وكان وجه المختار ضارباً إلى الحمرة قليلاً ، ولم يتمالك أن شعر في قرارة نفسه ، أنه كان امام رجل ، تتجسم في شخصه الزعامة باوضح معانيها ، حتى أن جرازياني - على حد قوله - كان وهو يكتب مؤلفه عن برقة ، لا يزال يشعر بالأثر الذي أحدثته في نفسه روية المختار ... وكيف انه أدرك لماذا كان المختار ، صاحب الكلمة المسموعة ، والرأي الاعلى بين المجاهدين » .)

وقد فاجأ جرازياني المختار بالسؤال الآتي :

جرازياني - كم من الوقت يمكنك ، بما لك من نفوذ وصولة ان تخضع الثوار في الجبل ؟

المختار - ابداً ، ابداً ... إني كاسير ، لا استطيع فعل شيء ... وفضلاً عن ذلك ، فقد اقسمنا جميعاً ان نموت واحداً

بعد واحد ، ولا نسلم أنفسنا بتاتاً ... ومن المعروف تماماً إنني لم اسلم نفسي اليكم .

جرازياني – من المحتمل لو اننـــا كنا على اتصال اكثر ، وزادت معرفتنا لبعضنا بعضاً ، لكان من المستطاع ، بالنظر لما لكم من خبرة ، أن نعمل سوياً من اجل الوصول إلى شيء قـد يفيد مصلحة السلام .

المختار – ولماذا لا نسعى في سبيل ذلك الآن ؟

جرازياني – لقد فات اوان ذلك ... لقـد فات اوان ذلك لانك صرحت بعدم استطاعتك فعل شيء ، نتيجة لوقوعـك في اسرنا .

(ويقـــول جرازياني ... إنـــه عرض على السيد عمر (النظـارات) التي اضاعها المختار ، في معركة وادي السانية ، فعرف المختار (النظارات) ، وقال إنه أضاعهـــا في هـذه المعركة) .

جرازياني – لقد تاكد لي ، من ذلك اليوم الذي عثرنا فيه على هذه النظارات) ... انك يوماً ما سوف تكون في أسري ...

المختـار ـ مكتوب ! أرجع إلي النظـارات ، لاني لا أرى بدونها ... ولكن ما الفائدة ؟ وانا الآن في قبضتك، مـع النظارات .

جرازياني ـ هل كنت تعتقد أن الله (تعالى) سوف يحميك لانك تجاهد في سبيل قضية عادلة ؟

المختار ـ نعم .

جرازياني ـ أنصت لما اقول ... لقـد فر الزعماء ، او ماتوا امام جيوشنا المنتشرة ، من نالوت إلى جبل برقة ، ولم أقبض على واحد منهم ، وهو ما يزال على قيد الحياة ... فلمـاذا تكون انت ذلك الرجل ، الذي لا يقهر ولا يهزم أبداً ... والذي لا يستطيع ان ياسره إنسان ، ويوليه المولى حمايته ... لماذا تكون انت الآن في هذا المكان ... ولماذا لا يكون من حقي ان اعتقد ، انا الآخر ، بأن الله يوليني حمايته ورعايته ؟

المختار ـ الله اكبر .

جرازياني ـ لا شك انك كنت طوال حياتك ، رجـلا شجاعاً ... وإنني لأرجو ان تظل شجاعاً ، مهما حدث لك ، او

نزل بك .

المختار ـ إن شاء الله .

(ويقول جرازياني إن السيد عمر المختار قد فهم في تلك الآونة مصيره المحتوم) .

*

وفوت المختار على الكلب جرازياني ما يريد ..

لقد كان يريد ان يتخذ المختار ، أداة طيعة لإخماد جذوة المقاومة ، فلم يحقق المختار امله .

ومن الثابت أن جرازياني عرض على المختار عفواً شاملاً لقاء ان يكتب المختار بتوقيعه نداء للمجاهدين يدعوهم فيه إلى الكف عن القتال والمقاومة ، ويطلب اليهم أن يسلموا انفسهم واسلحتهم للحكومة .

فرفض المختار لأسباب اوضحها لجرازياني هي :

« إن هذا العمل لا يرضي ضميره ودينه ، وفضلاً عن ذلك فإن أحداً لن يصدق صدور هذا النداء من المختار . »

أرأيت ؟

ها هو المختار يخير بين أمرين ... إما الموت ... وإما الحياة ..

فاختار بلا تردد الموت ، لأن ضميره ودينه ووطنيته ، تأبى عليه ان يحيا ذليلاً !!

وتلك هي الزعامة الوطنية حقاً وصدقاً .

يا مختار سوف تعدم شنقاً ، فلا تجبن أمام المشنقة .

ووالله يا جرازياني لو كنت أنت في ذلك المازق لمت من الجبن قبل ان تساق اليه .

ولكن المختار هو المختار ، وها هو يسمو ويسمو ثم يقول :

« إن شاء الله » .

فأي ثبات بعد هذا ايها الخبيث الوضيع ؟

يصف الدكتور العنيزي هذه المحاكمة فيقول :

« جاء الطليان بالسيد عمر المختار إلى قاعة الجلسة مكبلاً بالحديد ، وحوله الحراس من كل جانب .. وكان مكاني في القاعة بجوار السيد عمر ... واحضر الطليان احد التراجمة الرسميين ، واسمه نصرت هرمس ..

« فلما افتتحت الجلسة وبدأ استجواب السيد ، بلغ التأثر بالترجمان ، حداً جعله لا يستطيع إخفاء تاثره وظهر عليه الارتباك ، فأمر رئيس المحكمة باستبعاده وإحضار ترجمان آخر .

« فوقع الاختيار على احد اليهود ، وهو لمبروزو ، من بين الحاضرين في الجلسة .

« وقام لمبروز بدور المترجم، وكان السيد عمر رحمه الله .. جريئاً صريحاً ، يصحح للمحكمة بعض الوقائع ، خصوصاً حادث الطيارين الإيطاليين أوبر وبياتي .

« وبعد استجواب السيد ومناقشته وقف المدعي العمومي بدندو ، فطلب الحكم على السيد بالإعدام .

« وعندما جاء دور المحامي المعهود اليه بالدفاع عن السيد عمر وكان ضابطاً إيطالياً يدعى الكابتن لونتانو ، وقف وقال :

« كجندي لا اتردد البتة إذا وقعت عيناي على عمر المختار في ميدان القتال ، في إطلاق الرصاص عليه وقتله ، وافعل ذلك ايضاً كإيطالي أمقته واكرهه ، ولكنني وقد كلفت الدفاع عنه ، فإني أطلب حكماً ، هو في نظري اشد هولاً من الاعدام نفسه ، واقصد بذلك الحكم عليه بالسجن مدى الحياة نظراً لكبر سنه وشيخوخته .. » .

وعندئذ تدخل المدعي العمومي ، وقطع الحديث على المحامي وطلب من رئيس المحكمة أن يمنعه من إتمام مرافعته ...

مستنداً في طلبه هذا ... إلى ان الدفاع قد خرج عن الموضوع ، وليس من حقه ان يتكلم عن كبر سن عمر المختار

وشيخوخته .

ووافقت المحكمة ومنعت المحامي من إتمام مرافعته !!

وفضلاً عن ذلك ، فإنها لم تعين محامياً بدلاً منه !!

بل سأل رئيس المحكمة السيد عمر :

« إذا كان لديه ما يقوله » .

فلما اجاب المختار بالنفي ، انسحبت المحكمة ، وبعـد فترة وجيزة من الزمن عادت من مداولاتها ونطق الرئيس بالحكم ، فاذا هو يقضي باعدام المختار .

فقابل المختار ذلك بقوله :

« إنا لله وإنا اليه راجعون ! » .

وأراد رئيس المحكمة ان يعرف ما قاله السيد عمر .. فسأل الترجمان ان ينقل اليه عبارته ، ففعل ..

وعندئذ ، بدا التأثر العميق على وجوه الايطـــاليين أنفسهم الذين حضروا هذه المحاكمة الصورية ..

كما أخذوا يعلقون على قسوة هذا الحكم مظهرين كدرهم وإعجابهم بشجاعة المختار وبسالته في آن واحد » .

وأما المحاكمة ، فقد استغرقت من بدئها إلى نهايتها ساعة واحدة
ن عشرة دقيقة فحسب ، من الساعة الخامسة مساء إلى الساعة
سة والربع .

★

وكذلك قضت إرادة الله تعالى أن يتحكم الأوباش في مصير
ل ، لتتم الارادة الالهية وتمضي الحكمة الربانية ، ويلقى الرجل
شهيداً .

اعدام عمر المختار

في الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي ، الأربعـــاء ١١ سبتمبر ١٩٣١ ، نفذ الطليان في « سلوق » حكم الاعـدام شنقاً في السيد عمر المختار .

ودفعت الخسة الإيطاليين ان يفعلوا عجباً في تاريخ الشعوب ، ذلك انهم حرصوا على أن يجمعوا حشداً عظيماً لمشاهدة التنفيذ ..

فـــأرغموا أعيان البرقاويين الذين اعتقلوهم في « بنينة » ، كما أرغموا أعيان بنغازي ، وعدداً كبيراً من الأهـــالي من مختلف الجهات على حضور عملية التنفيذ .

فحضر ما لا يقل عن عشرين الف نسمة ــ على حـــد قول جرازياني .

ويقول الدكتور العنيزي :

« لقد أرغم الطليان الأهالي والأعيان المعتقلين في معسكرات

الاعتقال والنازلين في بنغازي ، على حضور المحاكمة ، وحضور التنفيذ .

وكنت احد اولئك الذين ارغمهم الطليان على حضور المحاكمة ، ولكني وقد استبد بي الحزن شاني في ذلك شان سائر ابناء جلدتي ، لم اكن استطيع رؤية ذلك البطل المجاهد على حبل المشنقة ..

فمرضت ، ولم يعفني الطليان من حضور التنفيذ في ذلك اليوم المشئوم ، الا عندما تيقنوا من مرضي وعجزي عن الحضور ..

ويا لها من ساعة رهيبة تلك التي سار فيها المختار بقدم ثابتة وشجاعة نادرة وهو ينطق بالشهادتين إلى حبل المشنقة ، وقد ظل المختار يردد الشهادتين حتى نفذ فيه الجلادون الحكم .

وعندما وجد هؤلاء ان المختار لم يمت ، اعادوا عملية الشنق مرة ثانية .

وكانما كان الرعب يملأ قلوب الطليان من البطل حتى بعد وفاته .. فما ان اتموا عملية الشنق حتى نقلوه الى مقبرة الصابري في سيدي عبيد بناحية بنغازي ..

فدفنوا جسده الطـــاهر في قبر عظيم العمق ، بنوه بالأسمنت المسلح ، وحرصوا على اجراء عملية الدفن سراً ، كما اخفوا معالم القبر حتى لا يعثر عليه ، واقاموا على القبر جنداً يحرسونه زمناً طويلاً خوفاً من ان ينقل مواطنوه جثمانه الطاهر .

*

عظمة في الحياة ، وعظمة في الممات يا مختار . عشت قـاتلاً لأعداء الله والوطن والإنسانية ، ومت مقتولاً بيد اعـــداء الله والوطن والانسانية .

حتى الموت ..

يموت الناس مرة ، وأنت تموت مرتين !

لمـاذا ؟

لأن الله يريد أن يرفعك بذلك مرتين ... ويعطيك على ذلك أجرين ..

أجر الشهيد الذي عاين الموت وذاقـه .

ثم أجر الشهيد مرة ثانية ... الذي أراد أعداؤه أن يقتلوه مرة ثانيـة ..

وتلك علامات القبول يا سيدي مختار .. وذلك أول تاج من تيجان الآخرة يضعه ربك على جبينك .

وقد تنبأ لك ، يا سيدي بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول :

« ما من أحد من أهل الجنة يسره أن يرجع إلى الدنيا غير الشهيد ، فإنه يحب أن يرجع إلى الدنيا ، يقول حتى أقتل عشر مرات في سبيل الله مما يرى ، مما أعطاه الله من الكرامة » .

وقد قتلت مرتين يا سيدي ، ولولا أن سنة الله لا تتغير لقتلوك عشر مرات في سبيل الله .

★

ويموت الناس يا سيدي سراً ، وجرت عادتهم أن ينفذوا احكام الاعدام بعيداً عن أعين الناس ... ولكن الله لم يرض لك ذلك ... وأراد أن يرفع لك ذكرك ، فأوحى إلى الطليان أن يجمعوا الآلاف لتحتشد ساعة التنفيذ .

وشهدوا جميعاً ، ورأوا جميعاً .

شهدوا عظمتك ، ورأوا بلاءك .

وكان أعظم ما راعهم ، أنك تدخل إلى الموت ثابتاً ، ولسانك لا ينفك يقول :

« أشهد ان لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله » .

ترددها يا سيدي مراراً وأنت تسير إلى المشنقة ، ثم تكثر من تردادها وأنت ترتفع إلى الحبل .

في تلك اللحظة ، لم تكن مع الناس ، وإنما كنت مع الله .

كان الناس يرون منك الجسد ... وكنت أنت ترى بداية الملأ الأعلى ..

حتى إذا تم لهم ما يريدون ، وانتهى الأجل المحتوم ، تشعشعت روحك العالية ، ورفرفت إلى حبيبها وخالقها وهي تردد وتردد :

« أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله » .

فظائع الاستعمار الايطالي

اليك بعضاً مما فعله الطليان ، في شعب ليبيا .. منذ نزلوا بلادها عام ١٩١١ .. حتى ذهبوا عنها مهزومين مقهورين ، عام ١٩٤٣ .

في ١٢ اكتوبر ١٩١١ ، في ناحية المنشية ، قتل الطليان من الأهالي عدداً يتراوح بين أربعة آلاف وسبعة آلاف نسمة ، ومثلوا بالكثيرين وهتكوا أعراض النساء ..

وأمعنوا في التنكيل بهؤلاء الاهالي فنفوا حوالي تسعمائة منهم والقوا في السجون أعداداً عظيمة من الرجال والنساء .

في يوم ٢٦ اكتوبر ١٩١١ ، أشعلوا الحرائق في أحد الأحياء الواقعة خلف بنك روما في طرابلس ، بعد أن ذبحوا اكثر سكان هذا الحي الذي التهمته النيران ، ولم يسلم من فتكهم النساء والأطفال والشيوخ والعجزة .

في ٢٧ اكتوبر ١٩١١ أعدموا رمياً بالرصاص حوالي خمسين نسمة بين نساء واطفال في ثكنة فرسانهم في مدينة طرابلس.

وظل الطليان يرتكبون هذه الفظائع في الأعوام التالية، فاستمروا يشنقون ويعدمون الأهالي الذين بقوا في المدن والقرى والنواجع ولم ينخرطوا في جيش المجاهدين.

ثم يلقون من نجا منهم في السجون، وينفون جماعة اخرى إلى إيطاليا وصقلية.

كما انهم ظلوا يهتكون اعراض النساء ... ويبقرون بطون الحبالى منهن.

ويصادرون أموال أهل البلاد ويغتصبون الأرض منهم.

ثم امتد طغيان الطليان، حتى شمل محاربة المسلمين في عقائدهم ... فدمروا مسجد سيدي عزيز في الفتائح، دون مسوغ حربي.

وامعنوا في إهانة الدين الاسلامي، ومنعوا الأهالي من إقامة شعائرهم.

وصار جنودهم يدخلون المساجد وهم سكارى ازدراء بالمسلمين

وتعطيلاً لعبادتهم .

ثم منعوا أداء فريضة الحج ، بـدعوى ان الوباء منتشر في الحجاز .

ثم زاد امتهانهم للدين الاسلامي في المدة التالية بدرجة شنيعة فكان من أسوإ فعالهم ، ان القى قائد طبرق الايطـالي بالمصحف الشريف إلى الأرض ، ثم أخذ يطأ عليه بقدمه على مشهد من جماعة من الأهلين وهو يقول :

« إنكم معشر المسلمين لا يمكن أن تصيروا بشراً ما دام هـذا الكتاب بين ايديكم » .

ثم اتخذوا من الأضرحة والمساجـد (اصطبلات) لدوابهم وخيولهم .

ومنذ عام ١٩١٣ بدأوا يسخرون العرب في بناء القلاع وتعبيد الطرق وغير ذلك من الأعمال الشاقة .

وغدت فظائع الطليان بين عـامي ١٩١٤ ـ ١٩٢١ خصوصاً صفحات متسلسلة الحوادث متشابهة الوقائع ..

فلم يفتروا لحظـة واحدة عن التقتيل والتعذيب ، والنكاية بالعرب والضغط على حرياتهم ، والعبث بـأرواحهم ، واغتصاب

أملاكهم ، ونهب اموالهم ، وإحراق بيوتهم ، وسبي نسائهم ، وتيتيم أطفالهم وتنصيرهم .

ونشط المبشرون الطليان في دعوتهم ، وعمدت الحكومة إلى إرغام النساء على التنصر والزواج من الطليان .

ثم اخذ المبشرون يعملون للقضاء على الأخلاق الإسلامية ، وبث روح الكثلكة في المدارس بين الاطفال ، والقضاء على معارف أهل البلاد والتعليم الديني ..

ثم اخذوا يميتون الصناعة والتجارة ، ويزاحمون الأهالي حتى في أدنى الحرف .

ثم منعوا الناس من التظلم ، وقيدوا حرياتهم ، فمنعوهم من محادثة بعضهم بعضاً ، ومن قراءة الصحف والمجلات والكتب الادبية ، ومن مراسلة اقاربهم في الخارج ، حتى صاروا في شبه سجن داخل بلادهم محرومين من كل صلة تربطهم بالعالم العربي خصوصاً .

وقد ابى صحفي إنجليزي ، رافق الحملة الايطالية ، أن يبقى مع جيش ، لا هم له – على حد قوله – إلا ارتكاب جرائم القتل ، لان ما كان يراه من المذابح ، وترك النساء العرب

المريضات يعالجن مع اولادهن سكرات الموت على قارعة الطريق ، جعله يكتب للجنرال كانيفا « قائد الجيش » كتاباً شديد اللهجة ، ذكر فيه ، انه يرفض البقاء مع جيش ، لا يمكن أن يعتبره جيشاً بالمعنى المعروف ، وإنما مجرد عصابة من قطاع الطرق والقتلة .

ولو انصف الصحفي المذكور ، لسماهم حثالة من صعاليك الطليان ، دفعهم الجوع والفقر ، فانتظموا في هيئة جيش ، والقوا بجثثهم على شعب آمن مسالم ، يفعلون به الافاعيل تحت ستار الاستعمار .

والاستعمار ، هو الاستعمار مهما وضعوا له من اسماء ، ولفقوا له من دعايات جوفاء !

★

وأخيراً جاء موسوليني ، ذلك الطبل الاجوف ، زعيماً على ايطاليا ، في اكتوبر ١٩٢٢ ، فكان بداية عهد أسود قاتم في ليبيا ، تضاءلت إلى جواره كل الفظائع التي ارتكبت من قبل وتلاشت .

لقد كان الفاشست يحلمون باعادة الامبراطورية الرومـــانية الغابرة ، فقرروا لذلك امتلاك البلدان العربية القائمة على شواطىء البحر الابيض ، ثم ابادة اهل هذه البلاد وافنائهم وتحويلها الى رقعة لاتينية .

وتلك لعمري وقاحة ما بعدها وقاحة ، أن يعمل شعب على ابادة عدة شعوب ليحل محلها بالقوة !

ولكن هذا هو منطق الطليـان !

وبلغ من استهتارهم ، انهم ألزموا خطباء الجمعة بالدعـــاء على المنابر لملك ايطاليا ، عمانويل الثالث ، وعندئذ امتنع النـاس عن صلاة الجمعة .

فلما هاج الرأي العام الاسلامي على هذا الفعـل ، استكتبوا الائمة تكذيباً بتوقيعاتهم ، جاء فيه ان الدعـــاء كان بمحض ارادتهم ، ومن تلقاء انفسهم ، ومن غير تدخل من جانب الحكومة الفاشستية !!

فهل رأيت وقاحة أبلغ من هذه ؟

وفي عهد بادوليو صاروا يمنعون الناس من اداء الحج ويضعون العراقيل في سبيلهم ، حتى يجبروهم على تركه .

وفي سنة ١٩٢٩ جمع الجنرال جرازياني جميع مشايخ السنوسية وأئمة المساجد والمؤذنين والفقهاء والسدنة وسجنهم جميعاً في مركز بنينة ، وكان بناء قديماً لا سقف له ، ذاقوا فيه مر العذاب جوعاً وعطشاً ..

ثم نقلوا الى سجون ايطاليا ..

وبعد ان مكثوا بها مدة أعيدوا الى بنينة فهلك منهم كثيرون جوعاً وتعباً ومرضاً .

وعندما اشتدت مقاومة المجاهدين ، وأدرك الطليان ، انه لا سبيل الى التغلب على العرب ، الا باتباع اساليب الإبادة والإفناء ، كان القضاء على اللغة العربية ، لغة الدين ودعامة قومية العرب ، ثم العمل على تنصير العرب واضعاف الدين والاخلاق من الوسائل التي تذرعوا بها لتحقيق هذه الغاية .

فاغلقوا الكتاتيب ودور العلم الوطنية ، وأنشأوا بدلاً منها مدارس ايطالية .

ثم اكثروا من اقامة دور الفحش والدعارة ، وعملوا على تنصير المسلمين ، وارغامهم على اعتناق الكاثوليكية .

وبذلوا في هذا الامر ، جهوداً جبارة .. واستقدموا لذلك جيشاً من المبشرين ، وانفقوا اموالاً طائلة ..

وانشأوا كثيراً من الكنائس في طول البلاد وعرضها التي تكاد لا يوجد بها مسيحي واحد !!

ثم كان أقبح ما فعل المارشال بادوليو انه أمر بأن ترصف (الصالة) في قصره بالبلاط منقوش عليه « محمد » صلى الله عليه وسلم تسليماً .

فبأي وصف توصف هذه الفعله يا دعاة الاستعمار ؟

ثم حاولوا طمس اللغة العربية نهـائياً : « حتى أنهم صاروا يحولون دون وصول الخطابات إلى أصحابها ما دامت هذه غـير معنونة باللغة الايطالية ! »

وفي عام ١٩٢٣ قتلوا من أهالي جعارة وغيرها عند احتلالها ما يزيد على الف رجل صبرا أمام نسائهم وأطفالهم .

وكان من أبشع ما فعلوا مما يدل على الجبن والنذالة والضعة ، وما شئت من أوصاف السوء ..

إنهم أتوا بعشرة سيدات من اهل جفـارة ، فجردوهن من من ثيابهن وشنقوهن عاريات ، وأبقوهن سبعة أيام معلقات على هذه الحالة !

ثم ما لبثوا أن احرقوا عدة قرى بمن فيها .

وفي عام ١٩٢٨ حدث حادثان أليمان .

الأول : ان ثلاثة من ضباطهم طلبوا ثلاث عربيات للاستمتاع بهن ، فتمكنوا من اغتصاب اثنتين ... وأما الثالثة ، فقد فر بها ابوها ، ونجت من براثنهم .

وأما الثاني : فانهم القوا جماعة من طيارة من علو ٤٠٠ متر من المكان المعروف بجرودس العبيد بالجبل الأخضر .

وأقبح من ذلك انهم ربطوا الشيخ مفتاح العبيدي وابن عمه صالح علي بين سيارتين دفعوهما إلى اتجاهين مختلفين ، فتقطعت أجسامهما إرباً إرباً أمام قبيلتهما المستسلمة القاطنة بجوار المعسكر الفاشستي في تاكنس .

*

ثم تفتق ذهن الجنرال جرازياني الذي استقدم خصيصاً لانهاء المقاومة في برقة عن اختراع « المحكمة الطائرة » .

وكانت هذه المحكمة تنتقل بالطائرة إلى المكان الذي يقع فيه الحادث وتعقد جلساتها في الهواء الطلق في الميادين العامة في المدن وعند النواجع ..

وكانت إجراءات المحاكمة والتنفيذ ، تتم بسرعة عظيمة ... فلا يسمح للمتهمين بالدفاع عن انفسهم ، ولا تفحص المحكمة شهادة الشهود ، بل يكفي مجرد الاتهام لاستصدار الحكم بالاعدام على المتهمين .

واليك قصة إحدى محاكمات هذه المحكمة الشيطانية لتتبين إلى أي مدى بلغ إجرام الطليان .

« جيء بالمتهمين الأربعة امام المحكمة التي تألفت من رئيسها وبعض الضباط الطليان ... وبدأ القاضي بسؤال اكبر المتهمين سناً طالباً منه الاعتراف باعطاء الخبز والطباق للمجاهدين . وعندما صمت المتهم ولم يجب ، صرخ القاضي في وجهه ، ووخزه أحد الشرطة في ظهره ، فاجاب المتهم بالايجاب ..

« وعندئذ قال القاضي : « حسناً يكفي هذا ! المتهم الثاني ! »

« وفي اقل من لحظة ، كان القاضي قد حصل من المتهم الثاني على إجابة تشبه إجابة الأول ، فنحي جانباً .. ولما كان المتهم الثالث اصماً فقد ترك دون سؤال ..

« ثم جاء دور المتهم الرابع ، وهو اصغر المتهمين سناً وتبدو عليه النجابة ..

« فأعاد القاضي نفس السؤال وطلب منه الاعتراف بجرمه ،

ولكنه رفض ان يفعل ذلك ، ثم قال : إن المجاهدين ولا شك كانوا يأخذون أغنامنا إذا رفضنا إعطاءهم الخبز والطباق ، وليس لدينا ما ندافع به عن انفسنا ، فكيف نستطيع اذن أن نمنعهم ! »

« فلما قال القاضي : « كان في وسعك أن تطلب (الكربنيري) من درنة » .

« أجاب : « ان القرآن الكريم يمنع تسليم المسلمين للمسيحيين »

« فلم يأبه القاضي بطبيعة الحال بهذا الدفاع ، وأصدر حكمه على الفور باعدام ثلاثـــة منهم باطلاق الرصاص عليهم من وراء ظهورهم ، « كما يجب ان يعامل اولئك الذين يخونون ايطاليا » ، على حد قوله ، وأطلق سراح الأبكم الأصم .

« وعندئذ وضعت الأغلال في أيدي الرجال الثلاثـة وأركبوا سيارة كبيرة سارت بهم في الطريق المؤدي الى السجن ، ولكن لم يلبث ان انقطع صوت محركها فجاة ، فجثم على المكان سكون عميق ، حتى اذا انقضت خمس دقـــائق فقط ، دوى في الفضاء صوت أعيرة نارية كثيرة أطلقت جميعهـــا في وقت واحد . ثم أعقبها طلق ناري منفصل .

« فلما استفسر عن السبب أجاب عربي : « لقد تعودنا يا سيدي سماع ذلك ، لأن هؤلاء التعساء لا يموتون سريعاً عندمـــا يطلق

الرصاص على ظهورهم من الخلف ، ولذلك يتقدم أحد الضباط للإجهاز على كل من يبقى فيه رمق من الحياة باطلاق رصاصة على رأسه » .

تلك احدى محاكمات « المحكمة الطائرة » التي ابتكرها شيطان جرازياني عليه اللعنة .

•

على أن ما ارتكبه جزار ليبيا من فظائع تقشعر من هولها الأبدان ، عندما حشد العرب في معسكرات الاعتقال ، كان يفوق كثيراً تلك المجازر التي وقعت على ايدي قضاة المحكمة الطائرة وجلاديها .

حشد جرازياني ٨٠ الف نسمة في معسكرات الموت المحاطة بالأسلاك الشائكة ، بعد ان ارغمهم على ترك دورهم واملاكهم ، واخرجهم بالقوة الى الأماكن التي يريدها ، وكان يهددهم اما بالموت واما بالخروج فوراً .

كل ذلك بدعوى انهم يتصلون بالمجاهدين .

واليك وصف مراسل جريدة المـــانية بعد زيارة معسكرات الاعتقال في برقة :

« ان الانتقادات التي يوجهها الآن الفرنسيس والانجليز الى خطة الفاشيست في برقة ، موجهة في الدرجة الأولى الى التدابير التي اتخذها الجنرال جرازياني لإجلاء ٨٠ الف بدوي عن اراضيهم وحشدهم على شاطىء سرت ، حيث مد الطليان اسلاكاً شائكة حول خيامهم ، دون أن يراعوا حالة هؤلاء البدو الروحية ، او يلاحظوا تاثير مثل هذا القيد والحصار فيهم ..

ولا يجوز لأحد أن يخرج من نطاق الحصار إلا في النهار ، بشرط أن يرجع إلى مكانه قبل ان يخيم الظلام ، وكل واحد من رؤساء القبائل والمنفذين ، مسئول عن اتباعه فرداً فرداً ..

ومع ذلك ، يجب أن نقول ان الحالة سيئة للغاية تفوق كل تصور ، فإن معدل الأموات من الأطفال يبلغ ٩٠ ٪ وأمراض العيون التي ينتهي اكثرها بالعمى كثيرة جداً ومنتشرة جداً ، ويكاد لا ينجو احد من الأمراض .

أما غذاء هؤلاء المساكين ، فالأحسن أن لا نتكلم عنه بالمرة ... ومن الطبيعي أن نرى هؤلاء يتألمون اشد الألم ، وفي الدرجة الأولى من هذه الأسلاك الشائكة ، رمز الأسر ، ورغم تلاصق الخيام وشدة تقاربها ببعضها ... فإن حصرها ضمن أسلاك شائكة ، يجب أن تعتبر من المتناقضات الغربية التي لا يتصورها العقل » .

وفي أثناء اعتقال هذه الأمة باكملها في المعتقلات ... أنزل جرازياني وأعوانه بزعمائهم وشيوخهم صنوف الاهانات البالغة ، فرموا بهم في اعماق السجون ، وقتلوا من وجهائهم رجلاً يدعى الشيخ سعيد البرقاوي مع خمسة عشر شيخاً شر قتلة .

ذلك بان القوا بهم جميعاً من الطيارات من علو شاهق على مشهد من أهلهم .

فكان ، كلما هوى منهم شخص ، صفق الضباط والجنود ساخرين منادين :

« فليات نبيكم محمد البدوي ، الذي اغراكم بالجهاد وينقذكم من ايدينا » !

أرأيت الخسة في الخصومة والدناءة في النفسية ؟

وكان ، من جراء أساليب الابادة هذه ... أن بلغ مجموع ما فتك الطليان بهم ٥٧٠٩٢٨ نسمة ، من سكان وطرابلس وبرقة .

وعندما دخل الطليان الكفرة في يناير ١٩٣١ ، ولم يجدوا بها سوى الشيوخ والنساء والأطفال ، استباحوا قرى هذه الواحة ثلاثة ايام بطولها :

« ارتكبوا خلالها ما لا تتصوره الأذهان من نهب وسلب

وتشنيع ، وسبي نساء ، وذبح شيوخ واطفال ، وإحراق دور ومزارع ، وانتهاك حرمة المساجد ودوس المصاحف » .

وقد وصف أحد الذين شهدوا معركة « الكفرة » فظائع الطليان فقال :

« ودخلوا الكفرة التي لم يبق فيها إلا الشيوخ والعجزة والنساء والأطفال ، وانتشروا فيها ، وفي قرية التاج مستبيحين كل حرمة ، ونهبوا الأموال ، وذبحوا الشيوخ والاطفال ذبح الخراف ، وفتكوا بالنساء فتكاً ترتعد له الفرائص ، وبقروا بطون الحوامل وكان نصيب الكثيرات من النساء الموت الفظيع لدفاعهن عن أعراضهن .

« وبالجملة ، فقد هتكوا اعراض ٧٠ عائلة من عائلات السادة الاشراف ، وجعلوا من الجوامع خمارات شربوا فيها الخمر ، وكانوا يجبرون النساء المسلمات ، اللاتي احضروهن للفحش » على شرب الخمر ، او الموت شر ميتة ، ونثروا جميع المصاحف والكتب الشرعية ، في زاوية التاج وداسوها ، والقوها في الاصطبلات تحت حوافر الخيل والبغال ... » .

إلا ان افظع ما فعله الطليان ، كان اغتصاب النساء الاشراف ويروي الامير شكيب ارسلان ، قصة هذه الفعلة الشنيعة ..

فيقول :

« وكان نحو من ٢٠٠ امرأة ، من نساء الاشراف ، قـــد فررن إلى الصحراء ، قبل وصول الجيش الايطـالي ، فارسلوا قوة في اثرهن ، فتـــأثروهن حتى قبضوا عليهن وسحبوهن إلى الكفرة ، حيث خلا بهن ضباط الجيش الطلياني واغتصبوهن ، وهكذا انزلوا المعرات بسبعين اسرة شريفة من اشراف الكفرة ، الذين كانت الشمس تقريباً ، لا ترى وجوههن من الصون والعفاف » .

وفي مكان آخر يقول الامير :

« ان الايطــاليين قلبوا زاوية السادة السنوسية في الكفرة ، إلى دار فسق وسكر ، وداسوا المصاحف الشريفة بالأرجـــل ، وعندما كانوا يطبخون طعـامهم .. كانوا يوقدون المصاحف تحت القدور » .

●

وفي اثناء هذا النضال ، استحق المـــارشال جرازياني لقب « الوباء » ، او « الطاعون » ذلك بأنه ظل شهوراً طويلة يعـدم حوالي ثلاثين نسمة يومياً .

وأما العرب الذين كانوا يحاولون الفرار ، فقد كان نصيبهم ان يلقوا من الطائرات حتى يتحطموا على الصخور .

ويقول جرازياني ان الفرد الواحد من العدو ، إذا حصل على العفو عنه والصفح عن فعاله ، فإنه يصبح بذلك أشد خطراً على الحكومة من الف من الاعداء السافرين .

وكان من اسباب الرحمة حقاً ، ومن حظ الاهـالي ان انتهى عهد جرازياني بمجرد انتهاء المقاومة واخمادهـا ، فارسل بدلاً منـه ماريشال الجو إيتالو بالبو حاكماً في عام ١٩٣٤ .

وقد وقع على كاهل بالبو ، تنفيذ الشطر الثـاني من برنامج إبادة الليبيين وافنائهم ، ونعني بذلك اغتصاب الارض منهم واعطائها للمعمرين الطليان .

وترك اصحاب الارض الحقيقيين ، وابناء البلاد يتضورون جوعاً ، هائمين على وجوههم في الشوارع ، او يخدمون ، إذا شاءوا البقاء على قيد الحياة ، هؤلاء المعمرين خدماً وعبيداً لهم .

•

تلك قطرات قليلة من طوفان البلاء وسيل العذاب الذي صبه

الاستعمار الإيطالي على أبناء القطر الليبي الشقيق .

ليعلم الناس جميعاً لماذا كان يقاتل المختار ويقاتل ، ويستبسل في قتاله وجهاده .

كان يعلم هو والمجاهدون معه ، أن العار والذل والعذاب ، وكل أنواع المهانة في انتظاره اذا استسلم ..

فكان لا بد له من القتال حتى الموت .

النصر

« حتى اذا استيأس الرسل وظنوا انهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجى من نشاء ، ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين » .

اطمانت الامبراطورية الإيطالية الى سلطانها ، ودانت لهــا لاقطار الليبية من اقصاها الى اقصاها ، من بعد استشهاد المختار عام ١٩٣١ حتى عام ١٩٤٢ .

احد عشر عاماً من اليأس المطلق ... الذي لا يبشر بشيء من الامــل .

امير البلاذ في مهجره في مصر .

اهل الحل والعقد الليبيين بعيدين عن البلاد .

نصف الشعب أو يزيـــد اهلكوا ، او اخرجوا من ديارهم ظلماً وعدواناً .

البقية الباقية مستضعفة في بلادها لا حول لها ولا قوة .

جرازياني ينفخ اوداجه ، ويختال على ارض ليبيا يمنة ويسرة حيث شاء .

ثم جاء من ورائه بالبو المـــاريشال العجوز ليتم قصة ابادة الشعب الليبي ، ويسلم الاراضي الى رعاع الطليان .

ليل هنا وليل هناك .

ويأس هنا ويأس هناك .

وبلغ الطليان اقصى مراتب العزة ، وبلغ الليبيون ابعـــد مراتب الذلة

هنالك ... عندما تبلغ الحلقوم ... وبلغ اليـــأس مداه من النفوس ... يـــنزل النصر ، وينتقم القدر ، ويحق الله الحق ، ويبطل البـاطل .

•

وكانت قصة النصر ، الذي انزله الله على شعب ليبيا المكافح ، قصة غريبة ينبغي على الناس جميعاً ان يعلموها ليطمئنوا الى عدل الله المنتقم الجبار .

بدأت الحرب العالمية الثـــانية في سبتمبر ١٩٣٩ ، وحرصت ايطاليا اول الامر على عدم دخولهـا .

حتى اذا رأت فرنسا تنهار على اثر الزحف الالماني الخاطف عليها ، اعلنت ايطاليا الحرب على انجلترا وفرنسا في ١٠ يونيو ١٩٤٠ .

وهكذا بدأ القدر يرسم خطته ، وبدأ الحبل يضيق حول عنق الامبراطورية الجوفاء العرجاء .

دخلت ايطاليا الحرب بقيادة زعيمها موسوليني طمعــاً في الاسلاب ، وكانت توقن ان الارض قد دانت لحليفتها المانيا .

فاخلف الله ظنها ، واحاطها بمكر عميق ، افضى الى زوالهـا نهائياً من الوجود كامبراطورية صاحبة مستعمرات .

واندحرت ايطاليا باندحار المانيا في شمال افريقيا ، ولم تغرب شمس يوم ٧ فبراير ١٩٤٣ ، حتى كانت جيوش رومل المنهزمة قد أخلت القطر الطرابلسي بأجمعه .

وكانت فرحة عظيمة شاملة عمت القلوب ، وعبر عنها امـير البلاد بقوله :

« إني أحمد الله الذي جعلني أشهد خروج هؤلاء (الطليان) الظالمين من بلادنا » .

وتدفق الليبيون إلى بلادهم التي ترعرعوا فيها وأخرجوا منها

ظلماً وزوراً .

وهكذا استدار الزمان ... وانتقم الديان ... ونزل العـــار بالطليان .

لقد أرادت إيطاليا إبادة الليبيــين فبادت هي وبقيت ليبيــا لليبيــين ..

وأراد جرازياني إعدام المختار ... فهلك هو وبقي المختار علماً للأحرار

العبرة من حياة المختار

« لقد كان في قصصهم
عبرة لاولي الالباب .. »

ليس المختـار أول من جاهد ولا أول من استشهد ، وإنما المختار هو أحد أولئك القلائل الذين يواصلون القتال رغم اليأس من نتيجة المعركة .

فهو بلغة الجيش ، رجل انتحاري ، رجل فدائي .

وهو بلغة الاسلام من اولئك « الذين قال لهم الناس ، إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيماناً وقالوا حسبنـا الله ونعم الوكيل » .

وذلك هو مفتاح شخصية الرجل الفذ .

آمن بالله واستقرت معاني الإيمان في قلبه ، فأصبح لا يرى إلا الله ، ولا يخشى إلا الله .

وهذا الصنف ، هو أقوى مـا عرفت البشرية وستعرف من الرجال .

وهو الانسان الحر في أعلى وأوسع معاني الحرية .

حرر قلبه من الأوهـام ومن الشرك ، ومن الضلال ، ومن الشهوات ، ومن كل ظلمة تحجب نور الحقيقة ... فإذا تم له ذلك ، كان قلبه نوراً خالصاً صافياً لا شائبة فيه .

وأصبح دائم المراقبة لله ، دائم الشهود لله ، في كل شيء يراه ويحس بآياته .

وهو من هنا شديد الخوف من الله ، لأنه يعلم أنه سبحانه شديد العقاب .

وشعور الخشية هذا يحجزه عن كل معصية ، مخـافة من الله ، واتقاء لغضبه وعذابه .

عندئذ يجده الله اهلاً لحبه واصطفائه ، فيتجلى عليه بالتجليات الربانية .. وينزل في قلبه سكينة لو جمعت الدنيا باسرهـا لتزلزله

ما استطاعت .

لذلك كان المختار راسخاً كالجبل الأشم ، تحاول الامبراطورية الايطالية بجموعها أن تزحزحه فترتد عنه وهي خاسئة ذليلة لم تنل منه شيئاً .

يوقن أن امثال جرازياني وجيوشه ، إنما هم ذباب ساقه الله ليبتلي به إيمانه وإيمان من معه .

فكان يقاتل الطليان وهو في قرارة ذاته يحتقرهم ويراهم ليسوا على شيء مهما حاولوا أن يتبجحوا في مظاهرهم .

ولا يوجد في العالم فدائية أعلى ، ولا أقوى ، من فدائية الايمان بالله .

وقد كانت تتمثل في عمر المختار أبهج وأسمى معانيها .

فالفريد في سيرته ، انه أحيا شيئاً كاد يندثر ، أحيا معاني الايمان التي كان الناس قد بدأوا ينصرفون عنها .

•

فالعبرة الأولى من سيرته ، أنه بنيان أسس على التقوى ، أصله

ثابت وفروعه في السماء .. فهو شجرة طيبة تؤتى أكلهـــا في كل حين .

عاش مباركاً في حياته مباركاً في مماته .

والعبرة الثانية ، انه كان داعياً إلى الله باذنه ، تربى على أيدي دعاة السنوسية ، فلما اكتمل وترعرع ، أدى الرسالة وبلغ الامانة وأنذر وبشر ، وخيركم من تعلم القرآن وعلمه .

وعبرة أخرى ، انه كان على فهم صحيح لدينه ، يأخذه كلاً لا يتجزأ ، فلا هو بالمتدين المحترف ، ولا هو بالمتدين البعيـــد عن جوهر الدين ، وإنما هو رجل مؤمن ، يعلم ان الاسلام لا يصلح أن يؤخذ بعضه ويترك بعضه ، وإنما لا يصلح المرء أن يكون مؤمناً حتى يعمل به كله .

وعبرة اخرى انه كان شاباً دائماً ، حاراً دائماً ، يتـدفق النور والحرارة من قلبه رغم شيخوخته .

وتلك طبيعة المقاتلين في سبيل الله ، الذين يخشون الـله ولا يخشون أحداً من عبادنا .

وإنك لتعجب حين تعلم ، أنه حين عين قائداً عاماً ، وهـو فوق الستين عاماً ، واستشهد وهو في نحو السبعين عاماً ، وما ذلك إلا لأنه رجل يقاتل ، ويحب ان يقاتل ..

ومثـل ذلك الشعور يجعله شاباً دائم الشباب ، وان ارتفعت به الأيام .

وعبرة أخرى ان الله لا يضيع جهاد المجاهدين ، ولا ايمـان المؤمنين ، اذا علم منهم صدق النية وحسن الطوية ..

فها هم اولاء أهل ليبيا جاهدوا وجاهدوا طويلاً ، ثم انتصرت ايطاليا عليهم نهائياً في عام ١٩٣١ ، ومكثت صاحبة السلطـــان المطلق في ليبيا حتى عام ١٩٤٢ .

احدى عشر عاماً كلها ياس مطلق ، ولا امل فيها يبشر بالنصر ثم ارأد الله ان يحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون ..

فجاء بالحرب العالمية الثانية ، وجعلها سبباً في نصر اولئك المظلومين ، فانتصروا واستعادوا بلادهم مرة اخرى ، وعـادوا الى اوطانهم التي ترعرعوا فيها ، بعد أن أخرجوا منها ظلماً وعدواناً . وذلك مثال حي خالد للأمم والافراد .

والعبرة الاخرى ان الظالم الباغي منهزم لا محالة في النهـاية ، وان انتصر في البداية وظن ان لن يقدر عليه احد .

ذلك ان الله خير المـــاكرين ، وأن مكر القدر فوق مكر الظالمين ... يرمي الله أهل الحق باهل الباطل ، واهل الباطل بأهل الحق ، ليميز الخبيث من الطيب ..

ثم تدور المعركة ، فينتصر اهل الباطل فيغتروا بذلك النصر ويزدادوا غروراً ، وتمضي الايام وتمضي ، حتى يكاد اهل الباطل ان ينسوا ما هم فيه وما ينتظرهم .. هنالك ..

وبغتة ، يحق الله الحق ويبطل الباطل .

وعبرة اخرى ان الشهداء وحـــدهم هم الذين لا يموتون ، وكل الناس تموت . وليس ذلك برأي من عندي ، وانما هو رأي القرآن حيث يقول :

« ولات حسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً ، بل احيـــاء عند ربهم يرزقون » .

فالشهداء اعقل الناس حقاً ، لانهم اختاروا اسهل ميتـــة ... واختصروا الحياة المملة السخيفة ، وسارعوا الى حيـــاة أرقى وافضل واوسع .

والعبرة الاخرى ان الرجل لم يسع للشهرة ، لان المخلصين لا يبحثون عن الشهرة ، وانما هي تبحث عنهم .

ولكن العبرة من سيرته ان كل من اخلص وجاهد ، وعمـل الصالحات ابتغاء رضوان الله ، تكفل الله برفع ذكره في الدنيـــا فضلاً عن الآخرة .

وعبرة اخرى « ان المختار كان ولياً من اولياء الله ــ ولا نزكي

على الله احداً ـ وقد صدقت فيه اشارات الحديث القدسي القائل :

« من آذى لي ولياً فقد آذنته بالحرب » .

وقد صدق الله وعده ، ودمر ايطاليا الفاشستية باكملها ، وفعل بها الافاعيل ، ونكل بقادتها شر نكال من اجل المختار .

والعبرة الاخيرة ـ وما اكثر العبر في حياة المختار ـ انني اشعر بالتقصير حين اكتب عن ذلك البطل ، وأحس احساساً عميقاً انه اعظم مما كتبت واجل مما توهمت .

سلام على عمر المختار .. سلام على عباده الذين اصطفى .

ـ تم ـ

الفهرس